بإذنه جلّ وعلا ، وإنّ لنا نحن المسلمين فى دين الإسلام أكبر دليل على معجزة هذا الكتاب العزيز الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والّذى يعتبر الإنباء بالغيب من مظاهر إعجازه الكثيرة . إنّ القرآن الكريم يقرّر هنا أنّ اللّه سبحانه وتعالى ما أرسل رسولاً إلاّ ليطاع بإذنه تعالى ، كما يقرّر فى ثلاث آيات كريمات مدنيّات[1] بأنّ اللّه سبحانه وتعالى سيظهر هذا الدّين على الدّين كلّه ولو كره المشركون وكفى باللّه شهيداً . وها هو ذا دين الإسلام يصل بفضل اللّه تعالى حيث يصل اللّيل والنهار ، وللّه الحمد والمنّة .

وإذا كان للمصطفى ﷺ حظٌّ من التسلية والتّسرية وذلك فى صدر الآية الكريمة ، فإنّ عجز الآية الكريمة من حظّ الظّالمى أنفسهم ، ابتداءً بالمنافقين الّذين يحلفون باللّه العظيم أنّهم لا يريدون بالاحتكام إلى الرّسول ﷺ سوى الإحسان والتّوفيق ، والّذين يعلم اللّه تعالى وحده لا شريك له ما فى قلوبهم. إنّ الآية الكريمة تقول لكلّ من ظلم نفسه وبخاصّة المنافقون الّذين ربّما كانوا كاذبين فى حَلِفِهِمْ باللّه العظيم ، بأنّ الأَوْلى بهم والأنفع لهم ، وقد ارتكبوا الكبير من الذنوب، ، ومنها الكفر بما أنزل اللّه تعالى ، والصّدّ عن رسوله ﷺ، أن يستغفروا اللّه تعالى الّذى يغفر الذّنوب جميعاً بفضله جلّ وعلا حينما تتحقّق شروط التوبة. قال تعالى: ﴿ ولو أنّهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا اللّه واستغفر لهم الرّسول لوجدوا اللّه توّاباً رحيماً ﴾ .

إنّ الأَوْلى بكلّ مذنب على عهد المصطفى ﷺ ، وبخاصّة من المنافقين الّذين ظلموا أنفسهم وبخسوها حظوظها ، أن يستغفروا اللّه تعالى . إنّهم لو استغفروا اللّه تعالى واستغفر لهم الرّسول ﷺ وسأل الرّسول عليه الصّلاة والسّلام ربّه جلّ وعلا المغفرة لهم لوجد أولئك المذنبون اللّه سبحانه وتعالى توّاباً يقبل التّوبة عن عباده ، رحيماً حينما يرشدهم إلى التّوبة ويتفضّل بقبولها منهم ، ويبدّل جلّ وعلا سيّئاتهم حسنات . ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تتحدّث عن المذنبين فى أثناء حياة المصطفى ﷺ ، وبخاصّة المنافقون . إنّ الأَوْلى بهم

(١) سورة التوبة : ٣٣ ، وسورة الفتح : ٢٨ ، وسورة الصف : ٩ .

يستغفروا الله تعالى حينما يجيئون إليه ﷺ الذى سوف يسأل الله تعالى المغفرة لهم . ومن البيّن أنّ على النّاس بعد وفاة المصطفى ﷺ أن يسألوه جلّ وعلا لا شريك له أن يغفر ذنوبهم ، ويستر عيوبهم ، ويكلأهم بعين رحمته وفضله جلّ وعلا . قال تعالى فى نعوت المتّقين فى سورة آل عمران[1] : ﴿ والّذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذّنوب إلاّ اللهُ ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ وإنّ من مقوّمات الإيمان طاعةَ الرّسول ﷺ طاعةً مطلقة بما فى ذلك ميدان الأحكام والقضاء وإلى ذلك أشارت .

الآية رقم (٦٥)

قال تعالى :

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا
فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

بقصد تسديد وجهة المصطفى ﷺ فى مجال الدّعوة إلى سبيل ربّه جلّ وعلا بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالّتى هى أحسن جاءت الأوامر : ﴿فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغا﴾ وبقصد تسليته عليه الصّلاة والسّلام ودعوة المنافقين إلى طاعته ص جاء القول : ﴿ وما أرسلنا من رسولٍ إلاّ ليطاع بإذن الله ﴾ وبقصد التّنبيه إلى أنّ الحكم لله تعالى وحده لا شريكَ له ، وأنّ طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ص طاعة مطلقة فى مجال الأحكام ، واعتبار الطّاعة شرطاً أساسيّاً لا محيد عنه للإيمان ، جاءت الآية الكريمة الّتى نحن بصددها ، وكأنّ المحَكّ الصّحيح الّذى يعرف به إيمان المنافقين الّذين حلفوا بالله العظيم أنّهم أرادوا الإحسان والتّوفيق حينما احتكموا لغير

(١) الآية : ١٣٥ .

المصطفى ﷺ ، كأنّ المحَك الصّحيح هو تحكيم المصطفى ﷺ فيما يستجدّ من أحكام والرّضا التامّ بما يحكم به ﷺ بوحي من ربّه جلّ وعلا . وهكذا تسدّ الآية الكريمة على المنافقين المنفذ الّذى اعتادوا أن يسرحوا فيه من قبل ويمرحوا حسب أهوائهم ، فما وافق هواهم من أحكام رضوا به ، وما لم يوافق هواهم لم يرضوا به وبحثوا عما يوافق هواهم عند غير المصطفى ﷺ من حكّام أو قضاة .

وفى سبيل تبيين معنى الآية الكريمة نودّ أن نقف عند ثلاثة مواضع فيها : «فلا وربّك لا يؤمنون» « فيما شجر بينهم » « حرجا » ونعتقد أنّ خير وسيلة لمعرفة معنى القول : « فلا وربك لا يؤمنون » أن نُعْرِبه . الفاء استئنافيّة . لا نافية ، والتّقدير : ليس الأمر كما يزعمون أنّهم آمنوا بما أنزل إليك ، ثمّ استأنف القَسَم بقوله : « وربّك لا يؤمنون » الواو : واو القَسَم ، ربّ : مجرور بالواو متعلّق بفعل مقدّر تقديره أقسم . والكاف : ضميرٌ مضافٌ إليه . لا : نافية . يؤمنون : فعل مضارع مرفوع بثبوت النّون لأنه من الأفعال الخمسة ، والواو فاعل(١) وما معنى فيما شجر بينهم ؟ فيما اختلط بينهم من أمورهم فالتبس عليهم حكمه(٢) وشَجَرَ بين القوم الأمر إذا اختلف أو اختلفوا وسمّيت مشاجرةً لتداخل كلامهم بعضه فى بعض . واشتجروا تنازعوا(٣) .

وما معنى «حرجا» فى قوله تعالى ﴿ ثمّ لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً ممّا قضيت ﴾ ؟ معنى الحرج شدّة الضّيق . ويبدو هذا المعنى واضحاً بالنّظر إلى الجمع فى نَسَق بين الضّيق والحرج فى الآية الكريمة الخامسة والعشرين بعد المائة من سورة الأنعام . قال تعالى : ﴿ فمن يُرد اللّه أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيّقاً حَرجًا كأنما يصّعّد فى السّماء ﴾

(١) انظر الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٣/ ٦٨ ، وانظر هنالك الاختلاف بين العلماء فى إعراب الجزئيّة الكريمة .
(٢) تفسير الطبرى ٥/ ١٠٠ .
(٣) معجم مقاييس اللّغة « شجر » ٣/ ٢٤٦ .

وأصل الحرج والحراج مُجتَمعُ الشّىء ، وتُصوِّر منه ضيق ما بينهما فقيل للضّيق حَرَج وللإثم حَرَج(١) والحرج جمع حَرَجة ، وهى مجتمع شجر . ويقال فى الجمع حَرَجات . قال :

أيا حرجات الحيّ حين تحمّلوا بذى سَلَم لا جادكنّ ربيع (٢)

وسأل عمر رضى الله عنه راعياً مدلجيًا من كنانة عن الحرجة قال : الحرجة فينا الشّجرة تكون بين الأشجار الّتى لا تصل إليها راعية ولا وحشيّة ولاشىء(٣).

فما معنى الآية الكريمة ؟ المعنى - واللّه سبحانه وتعالى أعلم - ليس الأمر كما يزعم المنافقون أنّهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أنزل من قبلك ، فى الوقت الّذى يتحاكمون فيه إلى الطّاغوت ، وقد أُمروا أن يكفروا به،وربّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم ، وانظر إلى لفظ الرّبّ الّذى يستعمل فى القرآن الكريم فى مواقف الخصوص ، وحينما يكون الجوّ عابقاً بشذا الرّضا والامتنان، خاصّةً وقد لحق بلفظ الرّبّ ضميرالمخاطب العائد إلى المصطفى ﷺ، وربّك أيها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم، لا يؤمن أولئك الزّاعمون حتّى يحكّموك فيما شجر بينهم من خلاف ، وتشابك بينهم من كلام ، واحتدم بينهم من خصام ، والتبس عليهم من أحكام ، ثمّ لا يجدوا ، بعد حكمك لهم أو عليهم بما أراك اللّه تعالى ، ضيقاً شديداً ، وأنّ يسلّموا بما قضيت تسليماً ، يزول معه أقلّ الضّيق ، وأدنى التّبرّم ، بعد زوال الشّعور بالضّيق الشّديد والحرج الأكيد. إنّ التّسليم الكامل والإذعان التّامّ يعنيان زوال أقلّ الضّيق وأضعفه بَلْهَ أكثره وأشدّه.

ومن البيّن أن الآية الكريمة تشمل كلّ أفراد الأمّة المحمّديّة وليس المنافقين وحدهم وليس المعاصرين له ﷺ دون سواهم ، لأنّ أحكام اللّه تعالى محفوظةٌ

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى « حرج » ١١٢ .
(٢) معجم مقاييس اللّغة « حرج » ٢/ ٥٠ .
(٣) تفسير الطبرى ٨/ ٢٢ .

وواضحةٌ فى كتاب اللّه تعالى وسنّة حبيبه ﷺ ، ومن البيّن كذلك أنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب ، فما السبب الخاصّ لنزول الآية الكريمة ؟ قال البخارى(١) : «حدّثنا علىّ بن عبد اللّه حدّثنا محمّد بن جعفر أخبرنا مَعْمرٌ عن الزّهرىّ عن عروة (بن الزّبير) قال : خاصم الزّبير رجلاً من الأنصار فى شريج من الحرّة ، فقال النّبىّ ﷺ : اسق يا زبير ثمّ أرسل الماء إلى جارك . فقال الأنصارىّ : يا رسول اللّه : أن كان ابن عمّتك . فتلوّن وجهه ثمّ قال : اسق يا زبير ثمّ احبس الماء حتّى يرجع إلى الجدر ، ثمّ أرسل الماء إلى جارك ، واستوعى النّبىّ ﷺ للزّبير حقّه فى صريح الحكم حين أحفظه الأنصارىّ . كان أشار عليهما بأمرٍ لهما فيه سعة . قال الزّبير : فما أحسب هذه الآيات إلاّ نزلت فى ذلك : ﴿ فلا وربّك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ﴾ .

فى شريج من الحرّة : فى مسيل ماءٍ من الحرّة إلى السّهل .

ثمّ احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر: جاء فى فتح البارى(٢): « قال العلماء: الشّرب من نهرٍ أو مسيلٍ غير مملوك يقدّم الأعلى فالأعلى ، ولا حقّ للأسفل حتّى يستغنى الأعلى ، وحدّه أن يغطى الماء الأرض حتّى لا تشربه ويرجع إلى الجدار ثمّ يطلقه . . . استوعى أى استوفى ، وهو من الوعى كأنه جمعه له فى وعائه . وقوله : أحفظه ، بالمهملة والظّاء المشالة أى أغضبه » والمراد بالجدر ما رفع حول المزرعة كالجدار.

وروى الإمام أحمد أنّ هذا الأنصارىّ قد شهد بدرا(٣) .

ولما كان المطلوب من أولئك المنافقين أن يستجيبوا لوعظ المصطفى ﷺ ،

---

(١) صحيح البخارى ٦/ ٥٨، وفتح البارى ٨/ ٢٥٤، حديث رقم ٤٥٨٥ و ٥/ ٣٨ حديث رقم ٢٣٦١، وتفسير ابن كثير ١/ ٥٢٠، وتفسير الطّبرى ٥/ ١٠٠، وتفسير القرطبى ١٨٣٦.

(٢) ٥/ ٣٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٥٢٠.

وقد عرفنا إعراضهم عنه عليه الصّلاة والسّلام وصدّهم عنه صدودا ، ولما كان هذا المطلوب منهم شيئاً هيّناً بالقياس لما اشترطه ربّ العزة لقبول توبة إخوانهم اليهود الّذين عبدوا العجل ، فقد كان ثمّة تنبيهٌ إلى أن المنافقين لو كتب اللّه تعالى عليهم ما كتب على اليهود ، لما فعل ذلك المكتوب سوى القليل منهم ، ولو أنّهم استجابوا لوعظ المصطفى ص لهم لكان فى ذلك الخير الكثير لهم والأجر العظيم . إنّ هذه المعانى تضمّنتها

الآيات رقم (٦٦ - ٦٨)

قال تعالى :

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾

المنافقون إخوان اليهود بنصّ القرآن الكريم ، ويشترك المنافقون واليهود فى الصّدّ عن المصطفى ﷺ صدودا . وحينما ذهب موسى عليه السّلام لميقات ربه أربعين ليلةً وأخذ التّوراة كان قومه عليه السّلام قد أضلّهم السّامرىّ فعبدوا العجل. وقد كتب اللّه تعالى على عابدى العجل أن يقتل بعضهم بعضاً شرطاً لقبول توبتهم، كما كتب على بنى إسرائيل أن يخرجوا من أرض مصر . وإلى قتل بعض بنى إسرائيل بعضهم الآخر أشارت الآية الكريمة من سورة البقرة(١) قال تعالى : ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنّكم ظلمتم أنفسكم باتّخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خيرٌ لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنّه هو التّوّاب الرّحيم﴾ فأمر موسى عليه السّلام من لم يكن عبد العجل أن يقتل من عبده(٢) .

---

(١) الآية : ٥٤ (٢) تفسير ابن كثير ١/ ٩٣.

إنّ الآية الكريمة الأولى تقرّر أنّ اللّه سبحانه وتعالى لو كتب على المنافقين وفرض عليهم أن يقتلوا أنفسهم ، أو أن يخرجوا من ديارهم ، كما كتب جلّ وعلا على بنى إسرائيل وفرض ، ما فعل كلاً من القتل والخروج من الديّار أى الهجرة ، إلاّ قليلٌ منهم . وينبغى أن يكون فى ذكر الخروج من الدّيار تنويهٌ بشأن المهاجرين الّذين تركوا فى مكة المكرمة كلّ ما يملكون فراراً بدينهم . وروى أنّ الآية الكريمة لمّا نزلت قال أناسٌ من أصحاب النّبىّ ﷺ : لو فعل ربّنا لفعلنا ، وفى رواية : لو أمرنا لفعلنا والحمد للّه الّذى عافانا ، فبلغ ذلك النّبىّ ﷺ فقال : لَلإيمانُ أثبتُ فى قلوب أهله من الجبال الرّواسى ، وفى رواية : إنّ من أمتى لرجالاً الإيمان أثبت فى قلوبهم من الجبال الرّواسى(١) وهكذا يشترك المهاجرون والأنصار فى الصّفات الحسنة ، وينفرد المنافقون بالصّفات السّيّئة . وتقرّر الآية الكريمة أنّ ما هو مطلوب من المنافقين أهون من القتل ومن الهجرة ألا وهو الاستجابة لموعظة المصطفى ﷺ لهم . إنّ المنافقين لو فعلوا ما يوعظون به من إيمانٍ صادقٍ وعمل للصّالحات وطاعة للّه تعالى ولرسوله ﷺ لكان ذلك خيراً لهم في دينهم ودنياهم ، فى آخرتهم وأولاهم ، وأشدّ تثبيتاً لإيمانهم وأقوى تأكيداً لاعتقادهم . وإذا كان من نصيب المستجيبين للوعظ فى هذه الحياة أمران اثنان ، الخير والتّثبيت ، فإنّ من نصيبهم كذلك أمرين اثنين فى الحياة الآخرة ، الأجر العظيم من لدنه جلّ وعلا وهو الجنّة (٢) والهداية إلى الصّراط المستقيم ، أى فى الدّنيا والآخرة(٣) والتّوفيق للصّراط المستقيم(٤) قال تعالى : ﴿ ولو أنّهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً . وإذًا لآتيناهم من لدنّا أجراً عظيما . ولهديناهم صراطاً مستقيماً ﴾ وقد كان الحديث عن الاستجابة للموعظة خير موطئ للحديث عن الطّاعة . وكما كان للاستجابة للموعظة ثوابها ، كان للطّاعة ثوابها وإلى ذلك أشارت .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/ ٥٢٢.
(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥٢٢ .
(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٥٥٢ .
(٤) تفسير الطبرى ٥/ ١٠٣ .

الآيتان رقم (٦٩ - ٧٠)

قال تعالى :

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾

وبين يدى دراستنا لأولى الآيتين الكريمتين على جهة الخصوص نودّ أن نشير إلى ما يلى :

أوّلاً : وجه الشّبه كبيرٌ بين صدر الآية الكريمة : ﴿ ومن يطع اللّه والرّسول﴾ وبين صدر الآية الكريمة التّاسعة والخمسين . قال تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللّه وأطيعوا الرّسول وأولى الأمر منكم ﴾ وكأنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تشير إلى ثواب طاعة اللّه تعالى وطاعة رسوله ﷺ ، فى حين أمرت الآية الكريمة السّابقة بتلك الطّاعة . ومن البيّن عدم الإشارة فى المرّة الآخرة إلى أولى الأمر ممّا يعتبر تأكيداً للمعنى المفهوم فى الآية الكريمة التاسعة والخمسين حينما لم تأت للمرة الثالثة جملة : «أطيعوا» فى حقّ أولى الأمر ، بأنّ طاعة أولى الأمر داخلةٌ ضمن طاعة اللّه تعالى وطاعة رسوله ﷺ، إذا كان أولو الأمر أسوة حسنة فى الطّاعة .

ثانياً : طاعة اللّه تعالى متقدّمةٌ على كلّ طاعة ، وقد أمرت بذلك الآية الكريمة التّاسعة والخمسون ، كما نبّهت على ذلك الآية الكريمة الّتى نحن بصددها. فإذا نحن تجاوزنا هذه الحقيقة وتأمّلنا المنعم عليهم فى الآية الكريمة تبيّنا أنّهم فى الحقيقة يبدأون بالمرسلين وذلك فى القول : ﴿ ومن يطع اللّه والرّسول﴾ ولا يبدأون بالنّبيّين كما يبدو للوهلة الأولى : ﴿ فأولئك مع الّذين أنعم اللّه عليهم من النّبيّين والصّدّقين والشّهداء والصّالحين ﴾ وتفسير ذلك أنّ

الآية الكريمة ذكرت المرسلين ابتداءً في القول : ﴿ ومن يطع اللّه والرّسول ﴾ والمعروف أنّ نعمة الرّسالة أكبر نعمة يمتنّ اللّه تعالى بها على عبد من عباده جلّ وعلا ، وأنّ نعمة النّبوّة تلى نعمة الرّسالة في الفضل ، لأنّ نعمة الرّسالة تشترط النّبوّة طريقاً وحيداً حتمياً مفضيًا إليها ، فكلّ رسول نبيّ ولا ينعكس الأمر هنا ، فليس كلّ نبيٍ رسولا . وهكذا يتبيّن أنّ الآية الكريمة حينما تبدأ بعد ذلك بذكر النّبيّين إنّما تعنى المرسلين قبل ذلك ، لأنّ المرسلين قد ذكروا قبل ذلك في القول : ﴿ ومن يطع اللّه والرّسول ﴾ ولأنّ درجة النّبوّة هي الطّريق الوحيد المفضي إلى درجة الرّسالة ، ففي النّصّ على درجة النّبوّة ذكرٌ ضمنيٌ لدرجة الرّسالة ، فكأنّ الآية الكريمة تقول : فأولئك مع الّذين أنعم اللّه تعالى عليهم من المرسلين والنّبيّين والصّدّقين والشّهداء والصّالحين . وإنّ من ألطف الأدلة على ما نقول : الآية الكريمة الأربعين من سورة الأحزاب الّتي جاء فيها النّصّ على محمّد بن عبد اللّه ﷺ خاتم النّبيّين . قال تعالي : ﴿ ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول اللّه وخاتم النّبيّين . وكان اللّه بكلّ شيءٍ عليما ﴾ لقد كان النّصّ على ختم النّبوّة ، لأنّ درجة النّبوّة هي الطّريق الوحيد المؤدّى إلى درجة الرّسالة الأعلى . وحينما يزول السّبب يزول المسبَّب ، وحينما يُقطع الطريق ذاته تُقطع الغاية من باب الأولى والأحرى ، وحينما ينصّ على ختم النّبوّة يكون في ذلك الدّليل على ختم الرّسالة لأنّ الطّريق الوحيد وهو النّبوّة غير موجود ، ومن باب الأولى أن تكون غاية ذلك الطّريق غير موجودة .

ثالثاً : يجئ في هذه الآية الكريمة الأولى ذكر النّعمة : ﴿ فأولئك مع الّذين أنعم اللّه عليهم ﴾ في حين يجئ في الآية الكريمة الأخرى الفضل : ﴿ذلك الفضل من اللّه﴾ وهكذا يتقلّب الطّائعون في نعمة اللّه تعالى وفضله .

رابعاً : تجيء النّعمة في موضعها ويجئ الفضل في موضعه ، ولا يمكن بحالٍ من الأحوال إلاّ أن يكون كلٌّ من اللّفظين في موضعه ، وهذا مظهرٌ من

مظاهر إعجاز القرآن الكريم . وتفسير ذلك أنّ النّعمة تعنى ما ينعم به المنعم جلّ وعلا ويخصّ به عبداً من عباده . وها هى ذى النّعم ترتّب ترتيباً دقيقاً وفق عظمها وضخامتها ، رسالة ، نبوّة ، تصديق ، شهادة ، صلاح . أمّا الفضل فهو ما يفضل النّعمة ويزيد عليها . وإنّ من المنعم عليهم ضمناً فى الآية الكريمة الطّائعين . إنّ اللّه سبحانه وتعالى أنعم على هؤلاء الطّائعين بتوفيقهم للطّاعة ، بينما تفضّل اللّه تعالى عليهم ليس فقط بقبول هذه الطّاعة من الطّائعين وثوابهم عليها، بل بإلحاقهم بأولئك المنعم عليهم ابتداءً بالمصطفين الأخيار بنعمتى الرّسالة والنّبوّة وانتهاءً بالصّالحين.

خامساً : يجئ فى الآية الكريمة الرّابعة والعشرين بعد المائة من سورة الأنعام، رداً على كفّار مكّة الّذين أرادوا أن يوحي اللّه تعالى إليهم كما أوحى إلى حبيبه ﷺ ، يجئ القول : ﴿ اللّه أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ فاللّه سبحانه وتعالى خصّ محمّداً ﷺ بنعمة الرّسالة ، لأنه ﷺ أهلٌ لها ويستحقّها، بسبب ما خصّه اللّه تعالى به من صفات . فالرّسالة والنّبوّة نعمتان يخصّ اللّه تعالى بهما من يستحقّهما . فإذا تحوّلنا إلى الفضل على الطّائعين تبيّنا أنّه محض هبةٍ وفضل من اللّه تعالى الرّزّاق الوهّاب المتفضّل جلّ وعلا .

وبعد الوقوف عند هذه الأمور المتعلّقة بالآيتين الكريمتين ، أولاهما على جهة الخصوص، يبدو أنّ معناها يصحّ أن يكون على الوجه الآتى . من يطع اللّه تعالى طاعةً مطلقةً ، ومن يطع الرّسول ﷺ طاعةً مطلقةً مِنْ أولى الأمر ومن الرّعيّة ، فأولئك يوم القيامة فى جنّات النّعيم ، مع الّذين أنعم اللّه تعالى عليهم بنعمة الرّسالة من المرسلين، وبنعمة النّبوّة من النّبيّين ، وبنعمة التّصديق والاتّباع المطلق من الصّدّقين ، إذ « الصّدّيقون تبّاع الأنبياء الّذين صدّقوهم واتّبعوا منهاجهم بعدهم حتّى لحقوا بهم »[1] وبنعمة الشهادة من الشّهداء الّذين قاتلوا فى سبيل اللّه تعالى وقتلوا: «والشّهداء وهم جمع شهيد ، وهو

(١) تفسير الطبرى ٥/١٠٣ .

المقتول فى سبيل اللّه ، سمّى بذلك لقيامه بشهادة الحقّ فى جنب اللّه حتّى قتل»(١) وبنعمة الصّلاح . وصفة الصّلاح هذه شركةٌ بين جميع المنعم عليهم ابتداءً بالمرسلين والنّبيّين ، فأكثرهم حظّاً من الصّلاح المرسلون والنّبيّون ، يليهم الصّدّيقون ، يليهم الشهداء الّذين اتّخذهم اللّه تعالى شهداء ، يليهم الصالحون. وهكذا يتبيّن أنّ الصّالحين يعرفون بصفة الصّلاح وَحْدَها بينما يعرف المرسلون والنّبيّون والصّدّيقون والشهداء بصفة أخرى إضافة إلى صفة الصّلاح. ومن الأدلّة على أنّ صفة الصّلاح مشتركةٌ بين جميع المنعم عليهم ما جاء على لسان كلٍّ من يوسف وسليمان عليهما صلاة اللّه تعالى وسلامه. جاء على لسان يوسف عليه السّلام قوله تعالى(٢) : ﴿ ربّ قد آتيتنى من الملك وعلّمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السّماوات والأرض أنت وليّى فى الدّنيا والآخرة توفّنى مسلماً وألحقنى بالصّالحين ﴾ وجاء عن سليمان عليه السّلام قوله تعالى(٣) : ﴿ حتّى إذا أتوا على وادى النّمل قالت نملةٌ يا أيّها النّمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسّم ضاحكاً من قولها وقال ربّ أوزعنى أن أشكر نعمتك الّتى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصّالحين ﴾ وجاءت الإشارة إلى مطلق الصّلاح فى مثل قوله تعالى(٤) : ﴿ ووصّينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمّه كُرهاً ووضعته كُرْهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً . حتى إذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنةً قال ربّ أوزعنى أن أشكر نعمتك الّتى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لى فى ذرّيّتى إنّى تبت إليك وإنّى من المسلمين ﴾ .

ومعنى القول : ﴿ وحسن أولئك رفيقا ﴾ وحسن أولئك رفيقاً فى الجنّة وصاحباً وصديقاً . ولمّا كان اصطحاب المنعم عليهم فى الجنّة ورفقتهم محض فضل من اللّه تعالى على الصالحين ، فقد جاء النّصّ على ذلك الفضل فى

(١) تفسير الطبرى ٥/ ١٠٣.
(٢) سورة يوسف : ١٠١ .
(٣) سورة النمل : ١٨ ، ١٩ .
(٤) سورة الأحقاف : ١٥ .

الآية الكريمة التّالية ، كما جاءت الإشارة الّتى تبيّن عظمة ذلك الفضل ، فقد ابتدأت الآية الكريمة باسم الإشارة الدّالّ على البعد : ﴿ ذلك الفضل من اللّه﴾ ومع أنّ ذلك الفضل معروفٌ أنّه من عند اللّه تعالى ، فإنّ فى النّصّ على ذلك بالقول : ﴿من اللّه﴾ تأكيداً لسموّ ذلك الفضل ، وعظمة تلك الهبة المحضة من اللّه تعالى : ﴿ذلك الفضل من اللّه ﴾ وكما ختمت الآية الكريمة السّابقة بالتّذييل : ﴿ وحسن أولئك رفيقا ﴾ الّذى يظهر النّعمة فى أبهى صورها ، ختمت هذه الآية الكريمة بالتّذييل : ﴿وكفى باللّه عليماً﴾ الّذى يظهر الفضل فى أكمل صوره ، لأنّ اللّه سبحانه وتعالى هو الّذى يتفضّل به ، وحسبك باللّه تعالى عليماً ،هكذا فى صيغة المبالغة بمن يستحقّ ذلك الفضل ومن هو أهلٌ له.

ومن ألطف ما يلاحظ على هذين التّذييلين : ﴿وحسن أولئك رفيقا ﴾ ﴿وكفى باللّه عليما ﴾ أنّ كلاً من التّذييلين يتألّف من أربعة عشر حرفاً منطوقا . وإنّ مما يقوّى من ظاهرة تلاؤم الأصوات بين التّذييلين اتّفاق اللّفظتين الأخيرتين صوتيّاً تماما : «رفيقا» «عليما» .

ويلاحظ أنّ الفضل إذا كان يتّجه بالدّرجة الأولى إلى الطّائعين ، وأنّ النعمة تتجه بالدّرجة الأولى إلى المنعم عليهم فإنّ لكلّ من المنعم عليهم والمتفضّل عليهم حظّاً من الفضل والنّعمة على التّوالى .

وإليك هذه المجموعة من الأحاديث فى الطّاعة كما رواها الحافظ ابن كثير فى تفسيره .

ثبت فى صحيح مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمىّ أنّه قال : كنت أبيت عند النّبىّ ص فأتيته بوَضوئه(١) وحاجته فقال : سَلْ . فقلت : يا رسول اللّه أسألك مرافقتك فى الجنّة . فقال : أو غير ذلك ؟ قلت : هو ذاك . قال : فأعنّى على نفسك بكثرة السّجود(٢).

(١) الوضوء بفتح الواو : الماء الذى يتوضأ به . (٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥٢٣ .

وروى الإمام أحمد عن عمرو بن مرّة الجهنى قال : جاء رجلٌ إلى النّبىّ ﷺ فقال : يارسول اللّه : شهدت ألاّ إله إلاّ اللّه وأنّك رسول اللّه ، وصلّيت الخمس ، وأدّيت زكاة مالى ، وصمت شهر رمضان . فقال رسول اللّه ﷺ: من مات على ذلك كان مع النّبيّين والصّدّيقين والشّهداء يوم القيامة هكذا ـ ونصب إصبعيه ـ ما لم يعقّ والديه تفرّد به أحمد(١) .

وروى التّرمذىّ عن أبى سعيد قال : رسول اللّه ﷺ : التّاجر الصّدوق الأمين مع النّبيّين والصّدّيقين والشّهداء(٢) .

وأعظم من هذا كله بشارةً ما ثبت فى الصّحيح والمسانيد وغيرهما من طرقٍ متواترةٍ عن جماعةٍ من الصّحابة أنّ رسول اللّه ﷺ سئل عن الرّجل يحبّ القوم ولمّا يلحق بهم فقال : المرء مع من أحبّ . قال أنس : فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث . وفى رواية عن أنس أنّه قال : إنّى لأحبّ رسول اللّه ﷺ وأحبّ أبا بكر وعمر رضى اللّه عنهما وأرجو أنّ اللّه يبعثنى معهم وإن لم أعمل كعملهم(٣).

وروى الإمام مالك بن أنس عن أبى سعيد الخدرىّ قال : قال رسول اللّه ﷺ: إنّ أهل الجنّة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدّرّىّ الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل بينهم . قالوا : يا رسول اللّه ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : بلى . والّذى نفسى بيده ، رجالٌ آمنوا باللّه وصدّقوا المرسلين . أخرجاه فى الصّحيحين من حديث مالك واللّفظ لمسلم ورواه الإمام أحمد(٤) .

(١، ٢ ، ٣ ، ٤) تفسير ابن كثير ١/ ٥٢٣ .

(١١)

الأمر بالجهاد واستجابة المؤمنين
وإعراض المنافقين والتذكر بيوم القيامة
الآيات (٧١ ـ ٨٧)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ
فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ
فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ
شَهِيدٗا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن
لَّمۡ تَكُۢنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ
فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ
يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي
سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٧٤﴾
وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ
وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ
ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ
نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ
ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ
وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ
مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ
كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا
قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيۡنَمَا
تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ وَإِن تُصِبۡهُمۡ
حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ
هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ
يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن
سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٧٩﴾

مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ
عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ
عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ
مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا
﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟
فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ
أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى
ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ
ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾
فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ
عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا
وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ
نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟
بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾
ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ
وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾

طاعة اللّه تعالى وطاعة رسوله ﷺ تكادان تكونان المحور الّذى تدرو حوله آيات القسم السّابق . وإنّما تكون طاعة اللّه تعالى بطاعة رسوله ﷺ الّذى بلّغ عنه جلّ وعلا . وإنّما تكون طاعته ﷺ باتخاذه عليه الصّلاة والسّلام أسوة حسنة . وقد جاء فى الآية الكريمة الحادية والعشرين من سورة الأحزاب النّصّ على هذه الأسوة الحسنة . قال تعالى : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول اللّه أُسوةٌ حسنةٌ لمَن كان يرجو اللّه واليوم الأخر وذكر اللّه كثيراً** ﴾ وحينما نتأملّ آية سورة الأحزاب هذه نتبيّن أنّها جاءت فى أثناء حديث السّورة الكريمة عن غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق الّتى تعتبر من أشقّ الغزوات على المصطفى ﷺ وعلى المسلمين إن لم تكن أشقّها بسبب المعاناة النّفسيّة الّتى عانوها .

وكأنّ الآية الكريمة تدعو المسلمين إلى اتّخاذ المصطفى ﷺ أسوةً حسنةً فى كلّ المجالات ، وفى مقدمتها ميدان القتال فى سبيل اللّه تعالى ، فقد كان المصطفى ﷺ بطل الأبطال وسيّد الرّجال . إنّ القسم السّابق إذا كان يدور حول الطّاعة بمعنى اتّخاذ المصطفى ﷺ أسوةً حسنة فإنّ هذا القسم التالى يدور حول هذه الطّاعة وبخاصّةٍ فى مجال الجهاد فى سبيل اللّه تعالى واتّخاذ المصطفى ﷺ أسوةً حسنة فيه .

إنّ السّياق لا يأمر المؤمنين بأخذ حذرهم وبالدّفاع فحسب إنّما يأمرهم بأن يكون أخذ الحذر مطيّةً لأن ينفروا جماعاتٍ ولأن ينفروا جميعاً . ولّما كان المنافقون قد وُجدوا بعد الهجرة ، وذلك دليلٌ على قوّة المؤمنين ، فقد حذّر السّياق من المنافقين المثبّطين عن الجهاد فى سبيل اللّه تعالى ، والّذين يفرحون لسلامتهم ممّا أصاب المسلمين فى جهادهم من قتلٍ وجراحٍ وما إلى ذلك ، ويحزنون لعدم أخذهم حظّهم من الغنيمة إذا انتصر المسلمون . إنّ على المؤمنين ألاّ يلتفتوا إلى المنافقين ، وأن يقاتلوا فى سبيل اللّه تعالى ، وهم

الّذين يبيعون الحياة الدّنيا بالأخرة ، وأن يحرصوا على الأجر العظيم بالحصول على إحدى الحسنيين ، الشّهادة أو النّصر .

إنه لا شىء يمنع المؤمنين من القتال فى سبيل اللّه تعالى ، وفى سبيل المستضعفين المستذلّين فى مكّة المكرّمة قبل الهجرة ، الّذين يسألون اللّه تعالى أن يخرجهم من قرية مكّة الظّالم أهلُها ، وأن يجعل جلّ وعلا لهم من يتولّى أمورهم ويعينهم على عدوّهم . ويبيّن السياق أنّ الّذين آمنوا يقاتلون فى سبيل اللّه تعالى ، وأنّ الّذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطّاغوت وفى سبيل الشّيطان الضّعيف الكيد . ومع ضعف كيد الشّيطان الرّجيم وكيد أوليائه فالعجب من بعض المؤمنين الّذين حينما كانوا فى مكّة مستضعفين طلبوا الإذن بالقتال فلم يؤذن لهم وحينما أمروا به بعد الهجرة خشوا عذاب النّاس كخشيتهم عذابَ اللّه تعالى أو أشدّ خشية ﴿ **وقالوا ربّنا لِمَ كتبت علينا القتال لولا أخّرتنا إلى أجلٍ قريب** ﴾ كي ينعموا بالحياة الدّنيا إلى أن يموتوا حتف أنوفهم ، فيبيّن لهم السّياق أنّ متاع الدّنيا قليل ، وأنّ الآخرة خيرٌ للمتّقين . وبقصد حمل الّذين خافوا عذاب النّاس على القتال يبيّن لهم السّياق أنّ الموت سوف يدركهم ، فمن الأفضل أن يموتوا شهداء فى ميدان الرّجولة . أمّا المنافقون فإنهم كالكافرين فى كلّ زمان ومكان ، إن تصبهم حسنة يقولوا إنّها من عند اللّه تعالى ، وإن تصبهم سيّئة يقولوا إنّها بسبب شؤمك ووجودك بين ظهرانَيْنا يا محمّد .

ويجيبهم السّياق على الفور : ﴿ **قل كلٌّ من عند اللّه فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً** ﴾ ويبين لهم أنّ ما أصابهم من حسنة فمن اللّه تعالى ، وما أصابهم من سيّئةٍ فبسبب ذنوبهم . إنّ هذه الحِكَم قد أوحاها اللّه تعالى إلى رسوله ﷺ المبعوث إلى النّاس أجمعين ، وإنّ اللّه تعالى ليشهد أنّ

محمّداً عـليه الصّلاة والـسّلام عبده ورسوله ، فـعلى النّاس أن يـطيعوه عـليه الصّلاة والسّلام ، فإن فى ذلـك طاعةً للّه تعالى ، أمّا من تـولّى وأعرض فإنه عليه وحده وزره وليس على النّبىّ ﷺ سوى البلاغ .

ومّما يقول المنافقـون للنّبىّ ﷺ : إنّ أمرك طاعة. فإذا ذهبـوا بعيداً عنه ﷺ أعلنوا فى ظلمات اللّيل وفى الأماكن النّائية خلاف ما قالوا له عليه الصّلاة والسّلام . ويجهـل المنافقون أنّ الملائكة تـكتب كلّ ما يبيّتون ، فـعليه ﷺ أن يعرض عنـهم ، وأن يتوكلّ على اللّه تـعالى الّذى يغنى عن كـلّ ما سواه جلّ وعلا .

والعجيب بشـأن المنافقين أنّهم تصدر منهم تلـك الأقوال والأفعال وهـم الّذين يملـكون ناصيـة اللّغة العربـيّة ولكنّهم لا يتـدبّرون القرآن الكـريم المنّسق الألفاظ المتفق المعانى .

ومن أحوال المنافقين العجيبة أنّهم يشنّون على المؤمنين حرباً نفسيّةً شعواء عن طريـق إذاعة كلّ خبرٍ يأتـى عن سرايا المؤمـنين وجيوشهم . وتـرشد الآية الكريمة إلى الـطّريقة الصّحيحة فى الـتّعامل مع تلك الأخبار بـأن يردّوهـا إلى الرّسول ﷺ وإلى أولى الأمر من المؤمنين كي يتبيّنوا ما هـو فى صلاح المؤمنين كي يعملوه ، مِنْ إذاعةٍ للخبر أو سكوتٍ عـنه . إنّ فضل اللّه تعالى كبيرٌ على المؤمنين ، وإنّ رحمته جلّ وعلا وسعتهم ، ومن مظاهـر ذلك فضح المنافقين ، وإرشاد المؤمنين ، والتّحذير من اتّباع خطوات الشّيطان الرّجيم .

ولما كان القتال فـى سبيل اللّه تعالى فرض عين عـلى المصطفى ﷺ ، فقد أُمِرَ بالـقتال فى كلّ الأحوال ، كمـا أُمِرَ عليه الصّلاة والسّلام بـتحريض المؤمنين عليه ، وذلك منتهى سلطتـه على المؤمنين ، فإنّ عليه البلاغ وعلى اللّه تعالـى الحساب . إنّه بالـقتال فى سـبيل اللّه تـعالى سيـكفّ اللّه تعـالى بأس

الكافرين ﴿ واللّه أشدّ بأساً وأشدّ تنكيلاً ﴾ ولمّا كان الإسلام كلاً لا يتجزّأ، وكان القتال فى سبيل اللّه تعالى من وسائله ، فإنّ من وسائله توسيع دائرة المعروف وذلك بالشّفاعة الحسنة الّتى يثيب اللّه تعالى عليها وليس بالشّفاعة السّيّئة الّتى يعاقب جلّ وعلا عليها ، وهو القادر على كلّ شىء ، وبإفشاء السّلام فإنّ إلقاءه تطوّع وردّه فريضة ، واللّه محاسبٌ يوم القيامة كلاً بحسب نيّته وقوله وعمله .

إنّ يوم القيامة لا ريب فيه ولا أحد أصدق من اللّه حديثاً .

الآية رقم (٧١)

قال تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾

دين الإسلام الّذى بعث اللّه تعالى به محمّد بن عبد اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم هو دين الحقّ ، وقد ثبت من الواقع أنّ الباطل لا يترك الحقّ وشأنه ، لذا وجب على الحقّ أن تكون له القوّة الّتى يدافع بها عن نفسه ويصول بها ويجول. وإنّ هذه الآية الكريمة لتأخذ بسببٍ من الآيات الكريمات التى تدعو المؤمنين إلى إعداد القوّة اللّازمة ، وإلى حسن استخدامها فى الدّفاع عن بيضة الإسلام ، وفى الكرّ والفرّ . وإنّ الآية الكريمة لتأمر المؤمنين الّذين يؤمنون باللّه تعالى ربّاً، وبالإسلام ديناً ، وبمحمّدٍ صلّى اللّه عليه وسلّم رسولاً ، أن يأخذوا حذرهم . والمعروف أنّ الأخذ إنّما يكون باليد أساساً . والمعروف أنّ أكثر الأعمال وأدقها إنّما تتم باليد . وإنّ جملة " خذوا " تتضمّن هذه المعانى كما تتضمّن شيئاً آخر وراء ذلك هو قوّة الأخذ وعنف القبض . ولا نلبث أنْ نتبيّن أنّ الأخذ لا يتعلّق بالمحسوسات وحدها ، بل يتعلّق بها وبالمعنويّات ، لأن المراد أخذ الحِذْر

من الأعداء واتّخاذ الحيطة من الخصوم .

ومامعنى أخذ الحِذْر ؟ اليقظة الكاملة أن يباغت عدوّ ، والاستعداد التّامّ أن يوجع خصم . وكأنّ أخذ الحِذْر أقرب إلى الاستعداد للدّفاع منه إلى التحفّز للهجوم . وهذا المعنى تؤكّده الآية الكريمة الثانية بعد المائة من هذه السّورة الكريمة . قال تعالى : ﴿ **وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصّلاة فلتقم طائفةٌ منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفةٌ أخرى لم يصلّوا فليصلّوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم . ودّ الّذين كفروا لو تَغْفُلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلةً واحدة . ولا جناح عليكم إن كان بكم أذًى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم ، وخذوا حذركم . إنّ اللّه أعدّ للكافرين عذاباً مهيناً** ﴾ .

ولكن الآية الكريمة الّتى نحن بصددها لا تقف عند مجرّد الدّفاع إنّما تتجاوزه إلى الهجوم ، ولا تأبه ولاتهتمّ بأخذ الحِذْر إلاّ باعتباره خطوةً ضرورية يتّخذها الدّفاع ، ومرحلةً حتميّة بين يدى النّفير والهجوم على أعداء اللّه تعالى، ولأجل هذا أمرت الآية الكريمة بعد ذلك بالنفير إلى الحرب والفزع (١) إلى القتال . قال تعالى : ﴿ **يا أيّها الّذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثباتٍ أو نفروا جميعاً** ﴾ ودليلاً على ذلك تأتى إلفاء بين يدى القول : ﴿فانفروا﴾ مما يُفْهَمُ معه أنّ ماقبل الفاء سببٌ لما بعدها ، وأنّ النّفير مسبَّبٌ عن أخذ الحِذْر .

وهكذا يتبين حثّ دين الإسلام المسلمين على الاستعداد للقتال وأخذ العدّة له وتلبية نداء الواجب حينما يجدّ الجدّ ، وعلى القتال فى سبيل اللّه تعالى من أجل رفع راية هذا الدّين الّذى أكمله اللّه تعالى ورضيه لنا وأتمّ به النّعمة علينا .

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى « نفر » ٥٠١

وتبيّن الآيـة الكريمة أنّ الـنّفير إلى الجـهاد يكون فـى صورتين اثنـتين : ﴿ياأيّها الّذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثباتٍ أوانفروا جميعاً﴾ . وثبات جمع ثُبة ، أى جماعة بعد جماعة ، وفرقة بعد فرقة وسريّة بعد سريّة (١) وقد تجمع الثّبة على ثُبين (٢) عن ابن عباس قوله : فانفـروا ثبات ، أى عصباً يعنى سرايا متفرقين . أو انفروا جميعاً ، يعنى كلّكم (٣) .

ومن البـيّن أن الآية الكريمة فـى حديثها عـن النفيـر فى هيئة الجـماعات والسّرايا ، وفى هـيئة النفير جـميعاً ، إنما تراعى فى الـتّرتيب الكثرة فتـقدمها والقلة فتؤخرها ، وما أكثر النفير فى هيـئة السّرايا بالقياس إلى النّفير جميعا ، وما أخفّه وأسهله .

والمعروف أنّ المؤمنين كانوا ينفرون بأمر المصطفى ﷺ فى هيئة سرايا كما كانوا ينفرون جميعا ، والمعروف كذلك أنّ الّذين يتخلّفون عن الجهاد فى سبيل اللّه تعالى هم المنافقون ، وإلى هؤلاء أشارت .

الآيتان رقم (٧٢ ، ٧٣)

قال تعالى : وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ
فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ
شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن
لَّمْ تَكُۢنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ
فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾

تخاطب الآية الكريمة الأولى المؤمنـين وتقرر أن من هؤلاء المؤمنين ظاهراً وباطناً من هو مؤمـن ظاهراً لا باطنا لأنه منافق. إن هؤلاء المنـافقين المندسّين فى

(١) تفسيرُ ابن كثير ١/ ٥٢٤ وتفسير الطّبرىّ ٥/ ١٠٤
(٢) تفسير الطّبرىّ ٥/ ١٠٤ وتفسير ابن كثير ١/ ٥٢٤
(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٥٢٤ وتفسير الطّبرىّ ٥/ ١٠٥

صفوف المؤمنين ، حيث إنهم ادّعوا الإيمان وحافظوا على الشكل الظاهرىّ للمؤمنين ، صح فى حقهم القول فى خطاب المؤمنين : ﴿ وإنّ منكم لمن ليبطئنّ ﴾ والمعنى وإن منكم أيها المؤمنون الصادقو الإيمان من اندس فيكم وتزيّا بزيّكم واستعار شكلكم الخارجّى . وهذا الشكل الخارجّى يعاكس حقيقة باطنه . وإنّ مِنّ أقوى الأدلّة على نفاقه أنّه يبطّىء الآخرين عن الجهاد فى سبيل اللّه تعالى ويثبّط هممهم عن بذل النفس والنفيس فى سبيله جلّ وعلا .

وهذا الذى يبطىء الآخرين ويثبط هممهم يتصف بهذه الصفات السّيّئة هو نفسه قبل سواه (١) .

ومن البين قوة التعبير وعمق المعنى فى القول: " لمن ليبطئن " فإن اللام الأولى تفيد التوكيد ، وإن اللام الأخرى واقعة فى جواب قسمٍ محذوفٍ تقديره: لمن واللّه ليبطئنّ (٢) .

والآية الكريمة فى خطابها للمؤمنين تقرّر وراء ذلك أن هؤلاء المؤمنين المجاهدين فى سبيل الله تعالى إن أصابتهم ولم تخطئهم مصيبة من قتل وجراح وهزيمة وما إلى ذلك قال الواحد من أولئك المنافقين : ﴿ قد أنعم اللّه علىّ إذ لم أكن معهم شهيداً ﴾ لأنّ هذا المنافق يعتقد أنّه لو كان مع المؤمنين لنا له ما نالهم من مصيبة .

ولما كان المنافق لا يرجو ثواباً على حسنة ، ولا يخشى عقاباً على سيئة، فإنّه يعتبر أدنى اذىً يصيبه بليّةً عُظمى ، لأن هذه الحياة الأولى منتهى همّه ومبلغ علمه . فإذا صُرِفت المصيبة عنه اعتبر ذلك نعمةً كبرى من اللّه تعالى .

---

(١) انظر مثلاً تفسير ابن كثير ١/ ٥٢٤.

(٢) انظر مثلاً تفسير الطّبرىّ ٥/ ١٠٥.

والمصيبة فى الأساس صفة للرّمية وأصلها فى الرّمية ، إذ يقال : رمية مصيبة ، ثم اختصت بالنائبة ، وبهذا تكون النظرة إلى الرّمْية من زاوية إصابة السّهم والأذى الذى تلحقه بالرّمية (١) ومن هذه الزاوية نظر المنافق إلى الظمأ والنصب والمخمصة والبلاء الذى يكون من نصيب المجاهدين فى سبيل الله تعالى ، فليس لدى المنافق أىّ نفع وراء تلك المصيبة ولا ثواب . ومن البيّن أن نظرة المؤمنين إلى هذا النوع من المصائب تعاكس نظرة المنافقين إليها .

وإذا كان المؤمنون يعتبرون كل مايصيبهم فى سبيل الله تعالى نعمةً من الله تعالى وفضلاً ، ويعتبرون الشّهادة قمّة تلك النّعمة من الله تعالى وذلك الفضل ، وكان المنافقون بعكس ذلك ، فإنّه من الطبيعى أن يجىء على لسان المنافق القول : ﴿ **قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيدا** ﴾ ومع أن المنافق يحمد الله تعالى أنّه لم يكن مع المؤمنين ساعة المصيبة حاضراً المعركة ، شهيداً القتال ، فإنه من باب الأولى أن يحمد الله تعالى أنّه لم يكن قتيلاً فى تلك المصيبة ، ولا شهيداً مع أولئك الشهداء السعداء الذين أكرمهم الله تعالى بهذه النعمة واتّخذ منهم شهداء . حقاً إنّ المعنى الأوّل القريب المنال الدّالّ على ضعف الهمّة وهو مجرّد شهود القتال هو الّذى يقصده المنافقون أساساً ، فإنّ المعنى الآخر البعيد المنال الدّالّ على علوّ الهمّة وهو الشّهادة فى سبيل الله تعالى يظلّ لفظ " شهيداً " يفيده ، إن لم يكن بدلالة المقال فبدلالة الحال ، وإن لم يكن مباشرة فبدلالة الالتزام .

وإذا كان هذا المنافق يعتبر عدم الجهاد فى سبيل الله تعالى ومايترتب عليه نعْمة من الله تعالى عليه حيث إنه لم يصبه شىء من الأذى الّذى أصاب المؤمنين الصّادقى الإيمان المجاهدين فى سبيل الله تعالى ، فإنّ هذا المنافق فى

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى « صوب » ٢٨٨ .

حال ظفر المسلمين ينتابه من الأسى لعدم حصوله على حظّه من الغنيمة مثل ما أصابه من الفرح لنجاته ممّا أصاب المسلمين فى المرّة الأولى .

وإن الآية الكريمة التّالية لتبيّن ما يجرى على لسان هذا المنافق حينما ينتصر المسلمون . قال تعالى : ﴿ **ولئن أصابكم فضلٌ من اللّه ليقولنّ كأن لم تكن بينكم وبينه مودّةٌ يا ليتنى كنت معهم فأفوزَ فوزاً عظيماً** ﴾ .

إن المنافق المُتخلّف عن الجهاد المثبّط للآخرين عنه ، إذا كان تخلّفه عن الجهاد قد حقّق له السّلامة الّتى يتمنّى على نحو ما بيّنت الآية الكريمة السّابقة ، فإنّ هذه الآية الكريمة التّالية تبيّن أنّ تخلّفه عن الجهاد لم يحقّق له أهمّ ما يتمنّى ألا وهو الغنيمة الّتى حصل عليها المجاهدون الّذين نصرهم اللّه تعالى نصراً عزيزا .

ولا زلنا هنا أمام اللام المُوطئة للقَسَم والتقدير : واللّه لئن أصابكم فضلٌ من اللّه . ولا زلنا كذلك أمام الإصابة ، ولكنّها إصابة الخير هذه المرّة . وقد حلا لبعضهم القول : « الإصابة فى الخير اعتباراً بالصَّوْب أى بالمطر . وفى الشّرّ اعتباراً بإصابة السّهم . وكلاهما يرجعان إلى أصل» (١) وإذا كان السّهم فى الشّرّ قد أصاب الهدف ولم يخطئه ، فما أحرى الصّوب أن يصيب فى الخير الهدف ولا يخطئه ، وما أخلق الفضل من اللّه تعالى أن يعمّ المجاهدين فى سبيل اللّه تعالى ويشملهم .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ ربّ العزّة الّذى لا رادّ لفضله ، لئن أصابكم أيها المجاهدون فى سبيله بفضل منه ونعمةٍ من نصرٍ وفتحٍ وغنيمةٍ وما إلى ذلك، ليقولنّ كلّ منافق فَرِح فَرَحاً شديداً لسلامته من المصيبة الّتى أصابتكم من قبل ، ليقولنّ الآن ندماً على فوات حظّه من الغنيمة ، ونصيبة من حطام الدّنيا ومتعها ، وكأنّه لم تكن بينكم وبينه مودّةٌ من صداقةٍ أو جوارٍ أو حِلْفٍ أو نسبٍ

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى « صوب» ٢٨٨ .

وما إلى ذلك : يا ليتنى كنت معهم هـذه المرّة الّتى انتصروا فيها وتحصّلوا على الغنائم فأفوز فوزاً عظيماً بالحصـول على أهـمّ ما أتمنّى فى هـذه الحياة ، وأنال حظّي العظيم من الغنيمة ، ونصيبي الموفور منها .

إنّ هـذه الفئة من المنافقين مقسّمةٌ نفوسها تجاهـكم أيهّا المؤمنون المنهزمون أو المنتصرون بـين الشّماته للمصيبة الّتـى تصيبكم ، وبين الحسد للـحسنة الّتى تنالكم ، فعلـيكم أن تأخذوا حذركم من هـؤلاء المنافـقين الّذين لا تهمّهم إلاّ نفوسهم ، وعليكم أن تجاهـدوا فى سبـيلى وإبتغاء مرضاتى ، فإن فى ذلك عزّ الدّنيا وثواب الآخرة وإلى ذلك أشارت

الأية رقم (٧٤)

قال تعالى :

فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ
يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

تأمر الآية الكريمة بالقتال فى سبيـل اللّه تعالى ، وتصف هـؤلاء المقاتلين فى سبـيل اللّه تعالى ، وتـبيّن ثوابهم العـظيم فى الدنيـا والآخرة . أمّا الأمر بالقتال فى سبيل اللّه تعالى فذلك فى القول : ﴿فليقاتل فى سبيل اللّه﴾ فالقتال المأمور به هـو الّذى يكون فى سبيل اللّه تعالى وحده لا شريك له ، وليس من أجل أىّ غايةٍ أخرى ، جليلةٍ أو حقيرة .

وأمّا صفة هؤلاء الّذين يقاتلون فى سبيل الـلّه تعالى فإنّهـا فـى القـول : ﴿الّذين يشرون الحياة الـدّنيا بالآخرة﴾ والمعنى : فلـيقاتل فى سبيل الـلّه تعالى الّذين يبيعـون الحياة الدّنيا بالآخرة . والمـعنى أنّ الثّمن الّذى يبذلونـه هـو هـذه الحياة الدّنيا ، الّتى لها من اسمها نصيب ، فهى دنيا بمعنى حقيرة ، وهـى دنيا

بمعنى أنّها قريبةٌ وأُولى ، وأنّ المقابِلَ الّذى يُشْتَرَى بهذه الحياة الدّنيا هو الآخرة، الّتى لها من اسمها نصيب ، فهى آخرةٌ وبعيدة . وبما أنّها فى صفاتها مخالفة للحياة الدّنيا ، فهى إذن حياة النّعيم المقيم ، وحياةُ الرِّفعة والعلاء ، وحياةُ العزّ والسَّناء . ففى هذه الآخرة ، كما جاء فى الحديث النّبوىّ الشّريف بشأن أصحاب الجنّة ، مالاعينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خَطَرَ على قلب بشر .

وبشأن المجاهدين فى سبيل اللّه تعالى ، وبشأن الشّهداء السّعداء منهم ، أشارت الأية الكريمة إلى أجرهم العظيم وذلك فى القول : ﴿ **ومن يقاتل فى سبيل اللّه فَيُقْتَل أو يَغْلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً** ﴾ ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تقدّم فى الذّكر الشّهيد الّذى قام بشهادة الحقّ ، وقُتِل فى سبيل اللّه تعالى ، وبذل روحه رخيصةً ابتغاء مرضاة ربّه جلّ وعلا ، وتؤخّر فى الذّكر الّذى قاتل فى سبيل اللّه تعالى حتّى انتصر جند اللّه تعالى وظلّت راية الإسلام عاليةً خفّاقة . إنّ هذا الّذى قاتل وانتصر وتأخّرت به الحياة تؤخّره الآية الكريمة فى الذّكر بينما تقدّم الّذى تقدّمت به الوفاة ونال أجر الشّهيد . ومن البيّن أن تقديم الشهيد فى الذّكر ليس لأنّه سبق غيره فى الذّهاب إلى اللّه تعالى من الّذين ينتظرون دورهم ، وإنّما لأنّ فضل الشّهيد عظيم ، ولأنّ أجره كبير ، ولأنّ منزلته عالية إذ إنّ الشّهيد عند اللّه تعالى لا يتقدّمه من عباد اللّه تعالى سوى الصّدّيقين ، بين يدى النّبيّين والمرسلين ، صلوات اللّه تعالى وسلامه عليهم أجمعين .

وحينما تقدّم الآية الكريمة فى الذّكر الّذى قُتِلَ فى سبيل اللّه تعالى على الّذى انتصر ، إنّما تريد أن تبيّن بوضوح للمجاهدين فى سبيل اللّه تعالى بأن طريق الجهاد فى سبيل اللّه تعالى ملىءٌ بالصّعاب محفوفٌ بالمخاطر ، وأنّ

الأجر على قدر المشقّة ، والثّواب بمقدار العمل ، فبما أنّ الجود بالنّفس أقصى غاية الجود ، كان ثواب الشّهيد هو الأكبر ، وتريد أن تبيّن أنّ هؤلاء الشّهداء السّعداء الّذين بذلوا أرواحهم رخيصةً فى سبيل اللّه تعالى ، كانت دماؤهم الثّمن الّذى دفعوه مقدماً ثمناً للنّصر الّذى أكرم اللّه تعالى به الغالبين المنتظرين حظّهم مستقبلاً من الشّهادة أو النّصر .

ونستطيع أن نفهم من مجىء سوف الّتى تشير إلى المستقبل البعيد : ﴿ فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ أنّ هذا الأجر العظيم سيكون فى الآخرة لكلٍّ من الّذين حصلوا على إحدى الحسنيين ، الشّهادة أو النّصر . وبشأن المنتصرين ينالون فى هذه الحياة الأولى عزّ الأولى تماماً كما ينالون عزّ الآخرة بإذن اللّه تعالى .

ثبت فى الصّحيحين : وتكفّل اللّه للمجاهد فى سبيله إن توفّاه أن يدخله الجنّة أو يرجعه إلى مسكنه الّذى خرج منه بما نال من أجرٍ أو غنيمة (١)

ويتعلق بالقتال فى سبيل اللّه تعالى القتال فى سبيل المؤمنين المستضعفين الّذين يسومهم الكافرون الخسف . وإلى هذا النّوع من القتال أشارت

الآية رقم (٧٥)

قال تعالى :

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

فى أسلوب الإنكار تسأل الآية الكريمة المؤمنين : ﴿ وما لكم لا تقاتلون

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٥٢٤ .

فى سبيل اللّه والمُستَضعَفين من الرّجال والنّساء والولدان ﴾ وما الّذى يمنعكم أيّها المؤمنون عن الجهاد ، وما الّذى أصابكم ودهاكم حتّى تتثاقلوا عن الجهاد فى سبيل اللّه تعالى ، وتتباطئوا عن القتال فى سبيل المستضعفين من المؤمنين المغلوبين على أمرهم من المسلمين فى مكّة الّذين سامهم المشركون الخسف ، ومنعوهم من الهجرة إلى المدينة المنّورة ، وحالوا بينهم وبين ممارسة تعاليم الإسلام بحريّة وعبادة اللّه تعالى وحده لا شريك له .

إنّ هؤلاء المستضعفين المغلوبين على أمرهم من المؤمنين فى مكّة هم الشّيوخ من الرّجال الضّعفاء ، وهم النّساء والولدان الصّغار ، ويجمع بين هؤلاء الضّعف والعجز وقلّة الحيلة . وقد قدّم السّياق الشّيوخ فى الذّكر دليلاً على ضعفهم الشّديد وعجزهم الأكيد ولولا ذلك لكانوا قد استطاعوا أن يكافحوا ويهاجروا . ومع أنّ من النساء من كنّ قادرات على الهجرة ولكنّ المرأة بطبعها عورة ، ولا تقوى على الانفراد بالسّفر والهجرة ، ولا تجد فى ظلّ تلك الظّروف من يستطيع أن يأخذ بيدها . وهكذا ينفى السّياق عن الشّيوخ القدرة المفروضة فى الرّجال ، ولهذا تقدّم ذكرهم ، كما ينفى القدرة عن النّساء الأشدّ من الرّجال عجزاً ولهذا يُذكرون بعد الرّجال . ويأتى أخيراً ذكر الولدان والصّبيان لأنهّم أعجز الجميع .

أما وقد ثبت عجز هذه الفئات الثّلاث عن الهجرة فإنّ الآية الكريمة تقرّر ما جرى على ألسنة هؤلاء المستضعفين من دعاء نابع من أعماقهم متّجه إلى أرحم الرّاحمين . قال تعالى: ﴿ **وما لكم لا تقاتلون فى سبيل اللّه والمستضعفين من الرّجال والنّساء والولدان الّذين يقولون ربّنا أخرِجنا من هذه القرية الظّالم أهلُها واجعل لنا من لدنك وليّاً واجعل من لدنك نصيراً** ﴾ .

إنّ هؤلاء المستضعفين يسألون اللّه سبحانه وتعالى أن يخرجهم ﴿ من

هـذه القرية الظّالم أهلها ﴾ ومن مدينة مكّة المكرّمة الّتى سامهم أهلها الخسف، وأذاقوهم صنوف العذاب ، وحالوا بينهم وبين ممارسة شعائر الإسلام، وبينهم وبين الهجرة إلى المدينة المنّورة كي يلحقوا بالمهاجرين السّابقين من أهلهم وذويهم بقيادة رسول السّلام وخير الأنام محمّد بن عبد اللّه ﷺ .

ويتجاوز المستضعفون فى دعائهم مجرّد الخروج من القرية الظّالم أهلها بكفرهم وإيذائهم المسلمين إلى دعاء اللّه سبحانه وتعالى أن يجعل لهم من لدنه جلّ وعلا ومن فضله الّذى ليس له حدود وليّاً يتولىّ أمورهم ، ويرعى شئونهم ، ويهتمّ بمصالحهم الدّينيّة والدّنيويّة ، وأن يجعل لهم من لدنه جلّ وعلا ومن عنده نصيراً يدفع عنهم أذى المشركين ، ويأخذ بأيديهم ، ويشدّ من أزرهم ، ويقوّيهم على المشركين حتّى يتحقّق لهم النّصر المؤزّر بإذن اللّه تعالى.

والمعروف أنّ هذه الآية الكريمة نزلت فى هؤلاء المستضعفين من الرّجال والنّساء والوالدان . جاء فى صحيح البخارى (١) : « عن أبى مُلَيْكة أنّ ابن عبّاس تلا : إلاّ المستضعفين من الرّجال والنّساء والوالدان ، قال: كنت أنا وأمّى ممّن عذر اللّه » وفى روايةٍ أخرى (٢) : « كنت أنا وأمّى من المستضعفين».

وحينما يكون المؤمنون طرفاً فى قتال يكون الكافرون طرفاً آخر فيه ، وحينما يقاتل المؤمنون فى سبيل اللّه تعالى ، يقاتل الكافرون فى سبيل الشّيطان. وإلى هذه المعانى أشارت .

(١) صحيح البخارى ٦/٥٨ وانظر تفسير الطبرى ٥/١٠٧ .
(٢) صحيح البخارى ٦/٥٨ .

الآية رقم (٧٦)

قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾

تقرر الآية الكريمة أنّ الّذين آمنوا إنّما يقاتلون الكافرين أعداء اللّه تعالى، وترشد المؤمنين إلى أنّ قتالهم أعداء اللّه تعالى يجب أن يكون فى سبيل اللّه تعالى وإبتغاء مرضاته ، كما تقرّر أنّ الّذين كفروا يقاتلون المؤمنون فى سبيل الطّاغوت والشّيطان الرّجيم . ولا مجال بين من يقاتل فى سبيل اللّه تعالى ويبذل النّفس والنّفيس إبتغاء وجه ربّه الأعلى ، وبين من يقاتل فى سبيل الشّيطان الرّجيم .

إنّ الفلاح من نصيب الفريق الأوّل ، وإنّ الخسران من نصيب الفريق الآخر . وها هي ذى الآية الكريمة تأمر المؤمنين الّذين يؤمنون باللّه تعالى وبرسوله ﷺ بأن يقاتلوا أولياء الشّيطان وأنصار الطّاغوت ، وتقرّر أنّ أولياء الشّيطان لا مولى لهم ولا ناصر لأنّ كيد الشيطان كان دائماً وأبداً ضعيفاً ، فلا يقوى جنده لجند اللّه تعالى الّذين قال عنهم عزّ من قائل (١) :

﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون وإنّ جندنا لهم الغالبون ﴾ رقال تعالى (٢) : **﴿ ذلك بأن اللّه مولى الّذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم ﴾ .**

وعلى الرّغم من الوعد من اللّه تعالى بأن ينتصر المؤمنون على الكافرين ،

---

(١) سورة الصافات ١٧١ ـ ١٧٣ .

(٢) سورة محمد ١١ .

فإنّ من المؤمنين من يتقاعس عن الجهاد فى سبيل اللّه تعالى ويتثاقل .

وإذا كان الّذين لم يقاتلوا فى سبيل اللّه تعالى وفى سبيل المستضعفين من المسلمين قد استحقّوا الإنكار الشّديد عليهم من ذى قبل ، فإنّ هناك فريقاً آخر من المسلمين طالب بأن يؤذن له بالقتال قبل الهجرة فلم يؤذن له ، فلمّا أُمِر بالقتال بعد الهجرة تقاعس وتثاقل وتباطأ فاستحقّ هذا الفريق أن يُتَعَجَّبَ منه وذلك فى

الآية رقم (٧٧)

قال تعالى :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ
وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ
مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ
كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا
قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾

سبب النّزول

قال الكلبى : نزلت هذه الآية فى نفرٍ من أصحاب رسول اللّه ﷺ، منهم عبد الرّحمَن بن عوف ، والمقداد بن الأسود ، وقُدامةُ بنُ مظعون، وسعد بن أبى وقّاص . كانوا يَلْقَوْن من المشركين أذىً كثيراً ، ويقولون: يا رسول اللّه ائذن لنا فى قتال هؤلاء فيقول لهم : كفّوا أيديكم عنهم ، فإنّى لم أؤمر بقتالهم .

فلمّا هاجر رسول اللّه ﷺ إلى المدينة ، وأمرهم اللّه تعالى بقتال

المشركين كرهه بعضهم وشقّ عليهم ، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية (١)

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ بالقول : ﴿ ألم تر ﴾ كما تخاطب وراء ذلك كلّ فردٍ من أفراد الأمّة الإسلاميّة بقصد التّعجب من حال هؤلاء المؤمنين الّذين أصرّوا على طلب الإذن بالقتال حين عُدِمَ الإذن ، فلمّا أُذن لهم بالقتال وجدّ الجدّ نكص فريقٌ منهم على عقبيه . ومعنى القول : « ألم تر » ألم تر يا محمّد بعين قلبك ، ألم تُبصر بعين بصيرتك ، ألم تعجب لحال هؤلاء المؤمنين الّذين حينما كانوا مضطهدين فى مكّة قبل الهجرة وطلبوا الإذن بالدّفاع عن أنفسهم وبالقتال ، قيل لهم كفّوا أيديكم ، واستبقوا سيوفكم فى أغمادها ، وأسلحتكم فى مواضعها ، فإنّا لم يؤذن لنا بالدّفاع عن أنفسنا وبقتال المشركين . وقيل لهم كذلك اتّجهوا إلى اللّه تعالى وقوموا بتطبيق أهمّ الأركان بعد الشّهادتين ألا وهو إقامة الصّلاة . والمعروف أنّ الصّلاة فُرِضت فى مكّة المكرّمة قبل الهجرة جملةً وتفصيلاً وأنّ الصّلاة هى الشّعيرة الدّينيّة الوحيدة الّتى فُرِضت فى السّماوات العلى ، وذلك حينما عُرِج بالمصطفى ﷺ إلى السّماوات العلى ليلة الإسراء والمعراج ورأى عليه الصّلاة والسّلام تلك اللّيلة من آيات ربّه جلّ وعلا الكبرى . وفى تلك اللّيلة فرض ربّ العزّة على المصطفى ﷺ وعلى المؤمنين الصّلوات الخمس المفروضة ، وكانت قبل ذلك قد فُرِضَت جملةً ركعتين صباحاً وركعتين مساءً وذلك على غرار الصّلاة الإبراهيميّة (٢) وكان الإسراء إلى بيت المقدس والمعراج إلى السّماوات العلى قبل الهجرة بسنةٍ واحدة (٣) وكما أمرت الآية الكريمة المسلمين الّذين طلبوا قبل

(١) أسباب النزول للواحدى ١٩٧ وانظر تفسير الطّبرى ٥/١٠٨ وتفسير ابن كثير ١/٥٢٥ .

(٢) نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين ٨٣ .

(٣) نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين ٧٩ .

الهجرة الإذن لهم فى القتال ، كما أمرت الآية الكريمة المسلمين بإقامة الصّلاة أمرتهم بإيتاء الزّكاة . والمعروف أنّ الزّكاة فُرِضت قبل الهجرة جملة ، بينما فُرِضت تفصيلاً فى السّنة الثّانية من هجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة المنوّرة (١) وأنّ الجهاد فى سبيل اللّه تعالى فُرِض فى السّنة الثّانية من الهجرة كذلك (٢) وإذا كانت إقامة الصّلاة أشرف العبادات بعد الشّهادتين ، فإنّ إيتاء الزّكاة أشرف العبادات فى مجال المال .

إنّ الآية الكريمة لتنبّه إلى وجوب العجب من حال هؤلاء المؤمنين الّذين لم يؤذن لهم بالقتال الّذى طلبوه فى مكّة قبل الهجرة ، فلمّا كُتِب عليهم القتال وفُرِض عليهم (٣) بعد الهجرة إذا فريقٌ من هؤلاء المؤمنين يخشون النّاس ويخافون عذاب المشركين وقتال الكافرين كخشيتهم اللّه تعالى وخوفهم من عذاب اللّه تعالى أو أشدّ خشيةً من اللّه تعالى ومن عذابه .

وإذا كانت خشية هذا الفريق من المؤمنين حبيسة صدره وقعيدة قلبه ، فإنّ هذه الخشية تحوّلت كلاماً على ألسنة هذا الفريق من المؤمنين اتّجه به إلى ربّه جلّ وعلا مربّيه بنعمه ، منشّئه بآلائه ، وذلك فى هيئة الأمانى لو أنّ فَرْضَ القتال قد تأخّر حتّى ينال ذلك الفريق من المؤمنين حظّه من نعيم الدّنيا الزّائل . قال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الّذين قيل لهم كفّوا أيديكم وأقيموا الصّلاة وآتوا الزكاة فلمّا كتب عليهم القتال إذا فريقٌ منهم يخشون النّاس كخشية اللّه أو أشدّ خشيةً وقالوا ربّنا لم كتبت علينا القتال لو لا أخّرتنا إلى أجلٍ قريب** ﴾.

إنّ هؤلاء المؤمنين الحريصين على الحياة الصّادفين عن الجهاد ينادون ربهّم

---

(١) انظر فقهه السنة ١ / ٢٧٦ ≤ ٢٧٧ .

(٢) فقه السنة ٣/ ٢٩ .

(٣) تفسير الطبرى ٥ / ١٠٨ . .

جلّ وعلا بـالقول « ربّنا » والمـعنى : يا ربّنـا . والمعروف أنّ لفـظ الرّبّ إنّما يُستعْمل فى القـرآن الكريم فى مواطن الخصـوص ، وحينما يكون الجـوّ عابقاً بشذا الرّضا والامتنان . ويُفْهمَ ومن القول : « ربّنا » أنّ هـؤلاء المؤمنين يتمنّون على اللّه تعالى ربّهم ، وقد ربّاهـم بنعـمه ، وغمرهـم بآلائه ، أن تكون نعمه موصولة ، وآلاؤه مستمـرّة ، وذلك فى هـيئة عدم كتابة القـتال عليهم فوراً ، وعدم فرض الجهاد فى سبيل اللّه تعالى عليهم فى الحال ، ولكن فى المآل على التّراخى كى يأخذوا حظّهم الموفور من نعيم الدّنيا ، ونصيبهم الكبير من متعها. وكما يسألون ربهّم جلّ وعلا أن يؤخّر فرض الجـهاد عليهم وذلك فى القول : ﴿وقالوا ربّنا لم كتبت عـلينا القتال﴾ هـم يسألون اللّه تـعالى أن يؤخّرهـم إلى أجلٍ قريب، وأن ينـسأ لهـم فى الأجل ، ويطيل لهم فى العمر ، كى يـنعموا بهذه الحياة الدّنيا ، وحينما يحين وقت وفاتهم حتف أنوفهم وعلى فرشهم وفى منازلهم يكونون قد نالوا حظّهم الموفور من متع هـذه الحياة الأولى ، ذلك الحظّ الّذى لا ينالونـه حينما يُفْرَض علـيهم القتال ، ويـتعرّضون للقـتل والجراح ، وذلك فى القول : ﴿ لو لا أخّرتنا إلى أجلٍ قريب ﴾ والمعنى : هـلا أخّرتنا إلى أجلٍ قريب ، يعنى إلى أن يموتوا على فرشهم وفى منازلهم (١)

وعلى الفـور تصحّح الآية الكريمـة لهذا الفريق مـن المؤمنين نظرتـه غير القويمة وذلـك فى القول: ﴿ قل متاع الدّنيـا قليـلٌ والآخرة خيرٌ لمـن اتقى ولا تظلمون فتيلا ﴾ وإنّ الخطاب فى جمـلة « قل » يتّجه إلى محمّد بـن عبد اللّه ﷺ . إنّه علـيه الصّلاة والـسّلام مأمورٌ بأن يـقول ذلك الـصّحيح مـن الرّأى لأولئك المؤمنين المتثاقلين عن الجهاد فى سبيل اللّه تعالى .

وإنّ القول : ﴿ متاع الدّنيا قليل ﴾ يبيّن أنّ متاع الدّنيا ونعيمها مهما طال

(١) تفسير الطبرى ٥ / ١٠٨ .

أمده فإنّه إلى انتهاء ، ومهما ربا زبده فإنّه إلى انقضاء .

وإنّ القول : ﴿ والآخرة خيرٌ لمن اتّقى ﴾ يبيّن أنّ الحياة الآخرة خيرٌ من الحياة الأولى لمن اتّقى اللّه تعالى وعمل الطّاعات واجتنب المعصيات . إنّ متاع الدّنيا قليل بينما متاع الآخرة كثير ، وإنّ نعيم الدّنيا زائل بينما نعيم الآخرة خالد .

وإنّ القول : ﴿ ولا تظلمون فتيلاً ﴾ يبيّن أنّ كلّ إنسان لا يُظْلَم مثقال ذرّة ولا وزن فتيل . عن ابن عبّاس قوله : فتيلاً ، قال : الّذى فى بطن النّواة(١) وفى شقّها(٢) مفتولاً(٣) إنّ اللّه سبحانه وتعالى لا يظلم وزن هذا الفتيل الّذى لا وزن له أساساً بحذف حسنة أو بإضافة سيّئة فكيف بما فوق ذلك .

والمعروف أنّ المؤمنين صادقى الإيمان بادروا إلى الجهاد فى سبيل اللّه تعالى ، وليس كذلك المنافقون الّذين لا تهمّهم إلاّ نفوسهم والّذين لا يكادون يفقهون حديثاً . وإلى هؤلاء أشارت

الآية رقم (٧٨)

قال تعالى :

أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾

(١) تفسير الطبرى ٥ / ٨٢ .

(٢) ابن كثير ١ / ٥١٢ .

(٣) تفسير الطبرى ٥ / ٨٣ .

تخاطب الآية الكريمة النّاس عموماً ، المؤمنين خصوصاً . ومِنْ بين المؤمنين ذلك الفريق الّذى تمنّى لو أنّ الأمر بالجهاد قد تأخّر حتّى ينال حظه من نعيم الدّنيا ومتعها . والآية الكريمة فى خطابها هذه الفئات المختلفة تقول : ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾ وحيثما تكونوا لن تستطيعوا أن تُفْلتوا من الوفاة.

وحينما نتبيّن أنّ الآية الكريمة تردّ على أولئك الّذين تمّنوا لو أنّ الأمر بالجهاد قد تأخّر كيلاً يُقْتَلوا فى ميادين القتال ، ندرك أنّ الآية الكريمة تهتمّ بهذا الفريق على جهة الخصوص وتقول له : هب أنّك لم تقاتل فى سبيل اللّه ونجوت من القتل ، فهل نجاتك من القتل تعنى نجاتك من الموت إلى الأبد ؟ ولمّا كانت النّجاة من القتل لا تعنى النّجاة من الموت فهل القتل جهاداً فى سبيل اللّه تعالى شيءٌ سوى الموت بالسّيف أو بالرّمح أو ما أشبه ذلك من أجل الهدف العظيم والغاية السّامية ؟ وما دام المرء سيموت هَرَماً إن لم يمت عَبْطةً ، وما دام المرء سيموت حتماً حتف أنفه إن لم يمت فى ميدان القتال وإن لم يستشهد فى سبيل اللّه تعالى ، فأيهّما أفضل : الاستشهاد فى سبيل اللّه تعالى أو الموت حتف الأنف كما يموت الجبناء ؟ والجواب بطبيعة الحال معروف . إنّ الشّهادة أرفع المنازل الّتى ينالها المنعم عليهم بعد المرسلين والنّبيّين والصّدّيقين من عباد اللّه تعالى الصّالحين .

ولمّا كانت الآية الكريمة تنطلق من نقطة الرّدّ على أولئك الّذين تمّنوا أن يتأخّر الأمر بالقتال فى سبيل اللّه تعالى ، ولمّا كان هؤلاء الّذين تمّنوا كأنّ منهم من استرسل فى تمنّيه ، وتمادى فى تحاشى القتل والقتال ، وفرّ من ميادين القتال وميادين الرّجولة حرصاً على الحياة ، لكلّ ذلك نحن نتبيّن مجيء جملة ﴿ يدرككم الموت ﴾ فى صدر الآية الكريمة ، وهى جملةٌ لها القدرة على تجسيم تحاشى القوم للموت للدّرجة الّتى يفرّون معها منه ، وكأنّ ثمّة فراراً من الموت وفى المقابل هنالك مطاردةٌ من الموت لأولئك الفارّين ، وكأنّ من هؤلاء

بالبروج

الفارّين من تحصّن من الموت بالبرج المشيّدة والحصون المنيعة والقصور الشّامخة الّتى يتحصّن بها المقاتلون فى العادة من أعدائهم . إنّ مصير هؤلاء دائماً وأبداً الهزيمة أمام الموت الّذى يدركهم دائماً وأبداً مهما فرّوا من أمامه وتحصّنوا منه، وليس وراء هذا الخوف من الموت وراء . وليس لهؤلاء وأمثالهم من الموت منجىً ولا ملجأ . وإنّ لسان حال الآية الكريمة يقول :

ما دام الفرار من الموت حتف الأنف غير ذى فائدة فلماذا لا يكون الموت ثمناً لأسمى الغايات وأنبل المقاصد ، ألا وهو الحصول على الشّهادة إثر القتال فى سبيل اللّه تعالى فى ميادين الشّرف ومواطن الرّجولة .

ونستطيع أن نفهم أنّ من المؤمنين من استجاب للّه تعالى وللرّسول ﷺ فبذلوا نفوسهم ونفيسهم ابتغاء مرضاة اللّه تعالى . ونستطيع أن نفهم كذلك أنّ ضعاف الإيمان وهم المنافقون بمختلف دركاتهم لم يستجيبوا لهذه الدّعوة ولم يلبّوا لهذا النّداء .

وإن من بين هؤلاء المنافقين الّذين وُجدوا فى المدينة المنوّرة والّذين لم يلبّوا داعى الجهاد أولئك الّذين عنتهم الآية الكريمة بالقول : ﴿ **وإن تصبهم حسنةٌ يقولوا هذه من عند اللّه وإن تصيبهم سيّئةٌ يقولوا هذه من عندك** ﴾ .

إن هؤلاء المنافقين الّذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وقعدوا عن الجهاد فى سبيل اللّه تعالى إن تصبهم حسنةٌ فى السلم من مطرٍ وخصبٍ وصحةٍ وولدٍ وثراءٍ وما إلى ذلك ، وفى الحرب من نصرٍ وغنيمةٍ وفتحٍ وما إلى ذلك ، يقولوا هذه الحسنة من عند اللّه تعالى وحدَه لا شريك له . وإن تُصبْ هؤلاء المنافقين سيئة فى السلم من جفافٍ وجدبٍ ومرضٍ وفقد ولدٍ ومالٍ وما إلى ذلك ، وفى الحرب من هزيمةٍ وقتلٍ وجراحٍ وما إلى ذلك ، يقولوا هذه السّيّئة إنّما حلّت بنا بسبب شؤمك علينا يا محمّد ، ووجودك بين ظهرانَينا ، واتّباعنا

لك ، وإيماننا بك ، وسيرنا فى ركابك . وعلى الفور تصحّح الآية الكريمة هذه النّظرة الجاهليّة وذلك بالقول : ﴿ قل كلٌّ من عند اللّه ﴾ والمعنى : قل يا محمّد ، كلٌّ من الحسنة والسيئة من عند اللّه تعالى وحدَهُ لا شريك له . أمّا الحسنة من اللّه تعالى فمنحةٌ ونعمة . وأمّا السّيّئة من اللّه تعالى فمحنةٌ ونقمة . وأنتم أيها المنافقون إنّما يبتليكم اللّه تعالى بالحسنة والخير بقصد أن يمهلكم جلّ وعلا لا أن يهملكم ، وبقصد أن تُنعِموا النّظر فى موقفكم من الدّعوة إلى صراط العزيز الحميد ، وتتأمّلوا سلوككم المعوجّ ، كى تصلحوا من الموقف ، وكى تقيموا السّلوك ، وإلاّ أخذكم اللّه تعالى أخذ عزيزٍ مقتدر . وأنتم أيها المنافقون إنّما يبتليكم اللّه تعالى بالسّيّئة وبالشّرّ ، بسبب سوء موقفكم من الدّعوة إلى صراط العزيز الحميد ، وبسبب سوء نيّاتكم وأعمالكم . فعليكم أن تستفيدوا من هذا الابتلاء وتلك المصائب كى تعودوا إلى جادّة الصّواب .

إنّ ما جرى على ألسنتكم أيها المنافقون حينما تصيبكم الحسنة وحينما تصيبكم السّيّئة هو الّذى يجرى على ألسنة أهل الجاهليّة خلال العصور السّحيقة . ولا فرق بينكم وبينهم فى شىء لبّاً وجوهراً ، وربّما اختلفتم عنهم فى شىءٍ شكلاً ومنظراً ، بأن أبطنتم الكفر وأظهروه وأظهرتم الإسلام وكفروه وجحدوه .

إنّ ما جرى على ألسنتكم أيها المنافقون شبيهٌ بما جرى على ألسنة آل فرعون وذلك فى القول (١) : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسّنينَ ونقصٍ من الثّمرات لعلّهم يذّكّرون . فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيّئةٌ يطّيّروا بموسى ومن معه . ألا إنّما طائرُهُمْ عند اللّه ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾ وشبيهٌ بما جرى على ألسنة قوم صالح عليه السّلام وذلك فى القول (٢) :

(١) سورة الأعراف ١٣٠ ـ ١٣١ .

(٢) سورة النمل ٤٥ ـ ٤٧ .

﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبُدوا اللّه فإذا هم فريقان يختصمون . قال يا قوم لِمَ تستعجلون بالسّيّئة قبل الحسنة لو لا تستغفرون اللّه لعلكم تُرْحمون . قالوا اطّيّرنا بك وبمن معك . قال طائركم عند اللّه بل أنتم قومٌ تُفْتَنون ﴾ وشبيهٌ بما جرى على ألسنة قوم الرّسل الثّلاثة من أتباع عيسى عليه السّلام وذلك فى القول (١) : ﴿ قالوا إنّا تطيّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنّكم وليمسّنّكم منّا عذابٌ أليم . قالوا طائركم معكم أئن ذُكِرتم بل أنتم قومٌ مسرفون ﴾ وتُختَم الآية الكريمة بالإنكار على القوم عدم فقههم لمعنى الحديث الّذى يوجّه إليهم ، والقول الّذى يقال لهم ، وذلك فى القول : ﴿فمالِ هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ﴾ والمعنى : ما شأن هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون الحديث الّذى يقال لهم ، وما الذى دها القوم وما الّذى أصابهم حتّى إنّهم لا يفهمون معنى ما يقال لهم بلسانٍ عربّيٍ مبين . إنّ لسان الحال يقول : ليس لذلك من تعليل سوى أنّ قلوب القوم الّتى فى صدورهم قد عَمِيَتْ والعياذ باللّه . وقد قال عزّ من قائل (٢) : ﴿ فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب الّتى فى الصّدور ﴾

ولمّا كان القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ، وكان من الحديث الّذى لم يفقهوه القول فى الآية الكريمة : « كلٌّ من عند اللّه » فقد أخذ السّياق فى تبيين معنى هذا الحديث فمع

الآية رقم (٧٩)

قال تعالى: مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

(١) سورة يس ١٨ ـ ١٩ .

(٢) سورة الحج ٤٦ .

مع أنّ منطلق الحديث أولئك المنافقون الّذين لا يكادون يفقهون حديثاً ، فإنّ الآية الكريمة تضع قاعدةً عامّة ، وتبيّن حكمةً بالغةً ، لذلك هى تخاطب كلَّ إنسانٍ ، ابتداءً بالمصطفى ﷺ، وانتهاءً بالنافقين الّذين لا يكادون يفقهون حديثاً ، ولا يفهمون قولاً .

إنّ الآية الكريمة تخاطب كلّ إنسان وتقرّر أنّ ما أصابك أيها الإنسان من حسنةٍ فى حال السِّلم أو الحرب فمن اللَّه سبحانه تعالى ، الّذى يختصّ بالحياة الطّيبة فى الأولى والآخرة من آمن وعمل صالحاً وأراد بعمله الصّالح وجه ربّه الأعلى . إنّ هذه الحسنة من اللَّه تعالى والإحسان منه جلّ وعلا إلى العبد جزاء الإنسان . وقد قال عزّ من قائل (١) : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان** ﴾ . وبشأن السّيّئة ، تقرّر الآية الكريمة أنّ ما أصابك أيها الإنسان من سيّئةٍ فى حال السِّلم أو الحرب ، فمن نفسك أيها الإنسان ، وجزاء ما اقترفت يداك من آثام وارتكبت من معاص .

إنّ السّيّئة منك أيها الإنسان تقابلها السّيّئة بمشيئة اللَّه تعالى وتقديره جزاءً وفاق السّيّئة الّتى أتاها المسىء .

وهكذا يتبيّن بشأن السّيّئة فى ضوء القول فى الآية الكريمة السّابقة بشأن الحسنة والسّيّئة : ﴿ **قل كلٌّ من عند اللَّه** ﴾ يتبيّن أنّ الحسنة والسّيّئة تكونان من اللَّه تعالى فى حقّ العبد المحسن والمسىء على التّوالى جزاءً على الإحسان أو الإساءة . كما يتبيّن بشأن السّيّئة كذلك فى ضوء القول هنا : ﴿ **وما أصابك من سيّئة فمن نفسك** ﴾ يتبيّن أنّ سبب وقوع السّيّئة على المسىء من اللَّه تعالى هو إساءة العبد ، ومخالفته تعاليم الشّارع الحكيم ، ومعصيته للَّه تعالى .

وقد كان العموم الّذى اتسم به القول : ﴿ **ما أصابك من حسنة فمن اللَّه**

(١) سورة الرحمن ٦٠ .

وما أصابك من سيّئة فمن نفسك ﴾ موطّئاً للشّمول فى القول : ﴿ وأرسلناك للنّاس رسولا ﴾ فالمصطفى ﷺ رسول ربّ العالمين إلى النّاس كافّة . والمعروف أنّ ممّاخَصَّ اللّه تعالى به محمّد بن عبد اللّه ﷺ أنّ رسالته ، خلاف سائر المرسلين ، إلى النّاس كافّة ، وأنّه عليه الصّلاة والسّلام خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين . ويلاحظ أن الآية الكريمة تنصّ على صفة الرّسالة فى حقّه عليه الصّلاة والسّلام . والعروف أنّ نعمة الرّسالة كبرى نعم اللّه تعالى على المصطفين الأخيار ، تليها نعمة النّبوّة . وحينما يكون ثمّة تنويةٌ بنعمة الرّسالة يكون المراد التّنبيه على كبرى نعم اللّه تعالى على عبدٍ من عباده المصطفين الأخيار . وحينما يكون ثمّة تنويهٌ بنعمة النّبوّة يكون المراد التّنبيه على نعمة النّبوّة ، وعلى نعمة الرّسالة كذلك ، لأنّ محمّد بن عبد اللّه ﷺ خاتم النّبيّين. ولّما كانت النّبوة الطّريق الوحيد المفضى إلى نعمة الرّسالة ، كان فى التّنويه بنبوّة المصطفى ﷺ ، الّذى تعنى النّبوّة فى حقّه عليه الصّلاة والسّلام ختم النّبوّة، كان فى التّنويه بنبوّة المصطفى ﷺ تنويهٌ بنعمة الرّسالة كذلك فى حقه عليه الصّلاة والسّلام .

ولّما كان موقف النّاس من رسالة المصطفى ﷺ مختلفاً ، فمن النّاس من آمن به عليه الصّلاة والسّلام ، ومنهم من كفر ، ومنهم من صدّ عنه عليه الصّلاة والسّلام ، فقد قدّمت الآية الكريمة فى جزئها الأخير الشّهادة الّتى تخضع لها كلّ رقبة ، ويذلّ لها كلّ عنق .

قال تعالى : ﴿ وكفى باللّه شهيداً ﴾ والمعنى : وحسبك يا محمّد باللّه تعالى شهيداً أنّك خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين وحبيب ربّ العالمين . ولّما كان المصطفى ﷺ مكلّفاً بتبليغ الرّسالة وكان النّاس ملزمين باتّباع الرّسول النّبى الأمّىّ فقد أشارت الآية الكريمة التّالية إلى هذه المسئوليّة المشتركة فإلى

الآية رقم (٨٠)

قال تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾

حينما تشير الآيـة الكريمة فى القول : ﴿ من يطـع الرّسول ﴾ إلى طاعة فريقٍ من المؤمنين للرّسول الكريم والـنّبىّ العظيم الّذى بلّغ الرّسالة وأدّى الأمانة وكان لقـومه النّاصح الأمين ، فـفى الإمكان أن يُفْهَمَ مـن ناحيةٍ قيـام هـؤلاء المؤمنين بمسئوليّتهم تجاه قيام المصطفى ﷺ بمسئوليّته ، وفى الإمكان أن يُفْهَمَ من ناحيـةٍ أخرى عصيان الفـريق الآخر للمـصطفى ﷺ ذلك الفـريق الّذى سوف تتحدّث فيه الآية الكريمة .

والآية الكـريمة تجعل طـاعة الرّسول ﷺ بمـثابة طاعـة اللّه تعالـى سواءً بسواء، لأنّ المصطـفى ﷺ هـو المبلّغ عن ربّه جلّ وعلا ، ولأنـه عليه الصّلاة والسّلام : ﴿ ما ينـطق عـن الهوى . إن هـو إلاّ وحىٌ يـوحى ﴾ (١) فبما أنّ المصـطفى ﷺ لا يبلـغ إلاّ ما أوحى اللّه تـعالى بـه إليه لفـظاً ، وهـو الـقرآن الكريم، ومعنى، وهـو سنّته عليه الصّلاة والسّلام لذا كانت طاعة الرّسول ﷺ طاعةً للّه جلّ وعلا . وانظر إلى الاختلاف فى زمنىِ الفعلين فى القول : ﴿من يطع الرّسول فقد أطاع اللّه ﴾ إنّ فى الإمكان أن نفهم من صيغة الزّمن المضارع انسحاب الفعل على كلّ الأزمنة بـحيث يُفْهَمُ من هـذه الصّيغة الاستمرار . أمّا صيغة الـزّمن الماضى ﴿ فقـد أطاع الـلّه ﴾ فإنّهـا تفـيد أن الأمـر قد قُضِى ، والصّواب قد أُتِى ، والحَق قد حَقّ . جـاء فى الحديث الثّابت فى الصـحيحين عن أبى هـريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : من أطاعنى فقد أطاع اللّه ، ومن عصانى فقد عـصى اللّه ، ومن أطاع الأمير فقد أطاعنـى ، ومن عصى الأمير

(١) سورة النجم ٣ ـ ٤ .

فقد عصانى (١) ولّما كانت الآية الكريمة تتحدّث عن الفريقين المختلف موقفهما من الدّعوة إلى صراط العزيز الحميد ، وكانت قد تحدّثت عمّن أطاع اللّه تعالى وأطاع رسوله الكريم ﷺ ، فقد تحدّثت فى شقّها الآخر عمّن عصى اللّه تعالى وعصى رسوله ﷺ. ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تتجاوز صفة العصيان المقابلة للطّاعة إلى صفة التّولّى وذلك فى القول : ﴿ ومن تولّى فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ لأنّ صفة العصيان الّتى تقابل صفة الطّاعة واسعة الدّلالة ، فهى تستعمل فى حال الإيمان بمعنى إرتكاب المعاصى ، وفى حال الكفر بمعنى عصيان المصطفى ﷺ والكفر والعياذ باللّه تعالى . ولّما كانت الآية الكريمة تريد أن تغطّى كلّ الفئات العاصية ، وتريد أن تشمل كلّ مواقف الكافرين بدين الإسلام ، فقد استعملت الآية الكريمة ، وفى الزّمن الماضى جملة ﴿ تولّى ﴾ أمّا الزّمن الماضى فكى يكون ثمّة انسجامٌ فى الزّمن بين جملتى ﴿ تولّى ﴾ ، ﴿أطاع﴾ وأمّا التولّى فلأنّا حينما نقف على معناه نتبيّن أنّه يمثل أسوأ مظاهر الكفر والعصيان . وحينما يشمل الحديث أشدّ الصّفات سوءاً يشمل بطريق الأولى والأحرى أقلّها سوءاً . واللّطيف بشأن جملة تولّى أنّها تفيد معنيين اثنين متقابلين ، أولّهما يفيد الإقبال والآخر يفيد الإدبار . يقول الرّاغب فى المفردات(٢) : « وقولهم تولىً إذا عُدّى بنفسه اقتضى معنى الوِلاية وحصوله فى أقرب المواضع منه . يقال : ولّيت سمعى كذا وولّيت عينى كذا وولّيت وجهى كذا أقبلت به عليه . قال اللّه عزّ وجلّ : ﴿ فلنولّينّك قبلةً ترضاها ، فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره ﴾ . وإذا عدّى بعن لفظاً أو تقديراً اقتضى معنى الإعراض وترك قربه . فمن الأوّل قوله : ومن يتولّهم منكم فإنّه منهم . ومن يتولّ اللّه ورسوله . ومن الثّانى

(١)تفسير ابن كثير ١/٥٢٨ .

(٢) ولى ٥٣٤ .

قوله : ﴿ فإن تولّوا فإنّ اللّه عليمٌ بالمفسدين . إلاّ من تولّى وكفر . فإن تولّوا فقولوا اشهدوا، وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ﴾ .

ومن الأدلّة على أنّ التّولّى يمثل أوضح صور الإعراض وأقواها حسّاً ومعنى قولهم : ولاّه دبره إذا انهزم . قال تعالى : وإن يقاتلوكم يولّوكم الأدبار ، ومن يولّهم يؤمئذٍ دبره (١) .

وهكذا يتبيّن أنّ القول فى الآية الكريمة : ﴿ ومن تولّى فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ يشمل كلّ صور تكذيب المصطفى ﷺ ، ومن هذه الصّور الإعراض والتّولّى والكفر والصّدّ عن سبيل اللّه تعالى ومعنى القول : ﴿ فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ فما أرسلناك أيها الرّسول الكريم والنّبىّ العظيم على هؤلاء المكذّبين بمختلف صفاتهم وفئاتهم ، حافظاً ولا محاسباً ولا مجازياً . إنّ عليك البلاغ فقط وعلى اللّه تعالى الحساب ، الثّواب أو العقاب ، ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلاّ من أتى اللّه بقلب سليم ﴾ (٢) ومن الفئات الّتى تشملها صفة التّولّى فئة المنافقين الّذين تخصّهم الآية الكريمة بالحديث وتصف مظهراً من مظاهر التواءاتهم فإلى

الآية رقم (٨١)

قال تعالى :

وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ
عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ ۖ وَاللَّهُ يَكْتُبُ
مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا

(١) مفردات الراغب الأصفهانى (ولى) ٥٣٤ .

(٢) سورة الشعراء ٨٨ ، ٨٩ .

إنّ هؤلاء المنافقين يقولون للمصطفى ﷺ أمرك طاعة (١) وانظر إلى بلاغة الإيجاز وروعة الحذف فى لقول : ﴿ ويقولون طاعة ﴾ علماً بأنّه بناءً على المعنى يصحّ الوقف على طاعة ويصحّ الوصل . إنّ هؤلاء المنافقين الّذين يعلنون خلاف ما يخفون يقولون للمصطفى ﷺ وجهاً لوجه أمرك طاعة ، وهم فى أعماقهم يريدون : أمرك معصية ، على نحو ما بيّنت الآية الكريمة بعد ذلك

ولّما كان النّفاق ذاته مظهراً من مظاهر الجبن فلننظر إلى المكان والزّمان اللّذين قال فيهما المنافقون خلاف ما قالوا للمصطفى ﷺ . إنّا بشأن المكان نتبيّن القول : ﴿ فإذا برزوا من عندك ﴾ ومعنى برزوا خرجوا إلى البَراز إلى الفضاء (٢) ومِنَ هنا قيل تبرّز فلانٌ إذا ذهب إلى البرَاز كنايةً عن قضاء الحاجة ، وتغوّط فلانٌ إذا ذهب إلى الغائط ، وهو المكان المنخفض ، من أجل الغاية ذاتها (٣) إنّ هؤلاء المنافقين لا يجرءون على أن يقولوا خلاف ما قالوه للمصطفى ﷺ مِنْ رضا ، وما أعلنوه من طاعة ، إلاّ إذا ذهبوا إلى الفضاء والمكان الخالى من النّاس ومن الأشياء ، وهكذا لا يكون إلاّ بعيداً وفى البراز حيث يتبرّزون أو يتغوّطون . علماً بأنّ البراز أقرب إلى الاستواء ، ومع البُعْد يتمّ الإستتار ، بينما الغائط أقرب إلى الاطمئنان والانخفاض .

وإنّه بالمقارنة بين البَراز والغائط يتبيّن أنّ البراز يفترض البعد فى الفضاء والإيغال منه وهذا البعد الّذى يقترن بجملة ﴿ برزوا ﴾ فى الآية الكريمة دليلٌ آخر على تمكن الجبن من المنافق والخوف والهلع .

---

(١) تفسير الطبرى ٥ / ١١٢ .

(٢) مفردات الراغب الأصفهانى (برز) ٤٣ .

(٣) مفردات الراغب الأصفهانى (برز) ٤٣ . ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس (غوط) ٤/ ٤٠٢ .

ونستطيع أن نفهم من القول : ﴿ فإذا برزوا من عندك ﴾ أنّ هؤلاء المنافقين المصمّمين على الغدر يندفعون من عند المصطفى ﷺ ومن حضرته إلى البراز لا يلوون على شيء ولا يلتفتون إلى أحدٍ سواهم .

وإذا كنّا فهمنا بعد المكان من جملة « برزوا » فإنّا نفهم الزّمان وظلمة اللّيل الدّامس من جملة بيّت فى القول : « بيّت طائفةٌ منهم غير الّذى تقول » إنّ كلّ عمل عُمل ليلاً فقد بيّت ومن ذلك بيّت العدوّ، وهو الوقوع بهم ليلاً(١) والمعنى أنّ هؤلاء النافقين إذا ذهبوا إلى البراز ، وهو ذلك المكان البعيد ، قالوا ليلاً وفى الخفاء ، غير الّذى كانوا قد قالوا لك من قبل . إنّ المنافقين إذا كانوا قد قالوا للمصطفى ﷺ وجهاً لوجه : أمرك طاعة ، فإنهم يقول بعضهم لبعضٍ فى ذلك المكان النائى المظلم الّذى خلوا فيه إلى شياطينهم من الجنّ والإنس : إنّ أمر محمّد ﷺ معصية !

ولماذا ذهب المنافقون إلى البراز ليلاً وقالوا ما قالوا فى خفاء ؟

خوفاً من أن يصل قولهم إلى المصطفى ﷺ . وهل هؤلاء المنافقون يؤمنون باللّه تعالى حقّاً ، وبمحمّد ﷺ صدقاً ؟ إنهم لو كانوا مؤمنين حقّاً لكان باطنهم كظاهرهم ولما قالوا ما قالوا أصلاً ، ولكنّ هؤلاء المنافقين يخشون عباد اللّه تعالى ولا يخشون اللّه تعالى وهو معهم أينما كانوا ، لهذا هم يستخفون من عباد اللّه تعالى ولا يستخفون من اللّه تعالى . وها هو ذا ربّ العزّة يأمر الملائكة بأن يكتبوا ما يبيّت المنافقون ويحوكون للإسلام ليلاً من سيّء القول والنّية والعمل . قال تعالى : ﴿ واللّه يكتب ما يبيّتون ﴾ إنّ الجوّ مكفهرٌّ بكلمات النّفاق واللّيل والفضاء ، وبسيّئات النّيّات والأقوال والأفعال من قِبَل المنافقين .

---

(١) تفسير الطبرى ٥/ ١١٢ .

وتأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يُعْرض عنهم وذلك فى القول : ﴿فأعرض عنهم﴾ والعَرْض خلاف الطّول . والعَرْض خُصَّ بالجانب . فإذا قيل : أعرض لى كذا أى بدا عَرْضه فأمكن تناوله . وإذا قيل أعرض عنّى فمعناه ولّى مُبْدياً عَرْضَه ، قال : فأعْرِضْ عنهم وعظهم ، وأعرض عن الجاهلين (١) ونستطيع أن نتبيّن حظّ هؤلاء المنافقين والجاهلين من الإعراض، وكون هذا الإعراض وسطاً بين الإقبال والإدبار ، حينما نتبيّن تولّى الكافرين عن آيات اللّه تعالى على نحو ما أشارت الآية الكريمة السّابقة فى القول : ﴿ ومَنْ تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ إنّ هذا التّولّى يمثّل أسوأ صور التّولّى والإدبار ، وحينما نتبيّن كذلك الصّفح الجميل الّذى أمر اللّه تعالى حبيبة المصطفى ﷺ أن يبادل به المعرضين عن الدّعوة إلى صراط العزيز الحميد

وذلك فى فجر الإسلام قال تعالى (٢): ﴿ وما خلقنا السّماوات والأرضَ وما بينهما إلاّ بالحقّ وإنّ السّاعة لآتية فاصفح الصّفح الجميل﴾والصّفح الجميل فى المعنويات بمعنى الهجر الجميل فى قوله عزّ من قائل(٣) : ﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً ﴾ والصّفح فى المحسوسات عُرض الشّىء وجانبه كصفحة الوجه وصفحة السيف وصفحه الحجر . وصفحت عنه أوليته منّى صفحةً جميلةً مُعْرِضاً عن ذنبه . والصّفح : ترك التّثريب، وهو أبلغ من العفو ولذلك قال : فاعفوا واصفحوا حتّى يأتى اللّه بأمره . وقد يعفو الإنسان ولا يصفح (٤) وبهذا يكون الصّفح أساساً فى المحسوسات إبداء صفحة الوجه

(١) مفردات الراغب الأصفهانى (عرض) ٣٣٠ .

(٢) سورة الحجر ٨٥ .

(٣) سورة المزمل ١٠ .

(٤) انظر مفردات الراغب الأصفهانى (صفح) ٢٨٢ .

أى جانب الوجه ، ويكون الصّفح الخطوة الّتى تسبق على الفور الإقبال بصفحتى الوجه وبكامل الوجه دليلاً على الرّضا التّام والعفو الكامل .

وهكذا يتبيّن أنّ القول : ﴿ فأعرض عنهم ﴾ يمثّل المرحلة الوسطى لأنّ عرض الجسم أو الشىء يقع بين الإقبال والإدبار ، بين الوجه والقفا .

كما يتبيّن أنّ الأمر للمصطفى ﷺ بالإعراض هنا عن المنافقين الّذين تتفاوت دركات نفاقهم ، فتهبط حتّى تكون كفراً ، وتقلّ حتّى تدنو من أبسط درجات الإيمان . والمعروف أنّ النّفاق فى المدينة المنوّرة انتهى قبل أن يلحق المصطفى ﷺ بالرّفيق الأعلى .

وإنّ الآية الكريمة الّتى تأمر المصطفى ﷺ بالإعراض عن المنافقين تأمره عليه الصّلاة والسّلام بأن يتوكّل على اللّه تعالى وحده لا شريك له قال تعالى : ﴿فأعرض عنهم وتوكّل على اللّه وكفى باللّه وكيلاً ﴾ إنّ المصطفى ﷺ مأمورٌ بأن يتوكّل على اللّه تعالى فى كلّ الأحوال ، ومن هذه الأحوال حينما يبيّت المنافقون من القول غير ما قالوا للمصطفى ﷺ فى وَضَح النهار . ومعنى وكفى باللّه وكيلاً ، وحسبك باللّه وكيلا (١) .

والعجيب فى أمر هؤلاء المنافقين أنهّم عربٌ أقحاح يملكون ناصية اللّغة العربيّة ولا يخفى عليهم إعجاز القرآن الكريم ومع ذلك هم لا يتدبرّون القرآن الكريم . وإنّ الآية الكريمة التّالية تتحدث فى هذا الخصوص فإلى

(١) تفير الطبرى ٥/ ١١٣ .

الآية رقم (٨٢)

قال تعالى : أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾

إن الآية الكريمة تنكر على المنافقين فى أسلوب الاستفهام ، عدم تدبّرهم لمعانى القرآن الكريم ، وتأمّلهم ساحر نظمه ، وهم أهل البيان ، وأرباب الفصاحة، وتقرّر أنّ هذا القرآن الكريم لو كان من عند غير اللّه تعالى لما خفى عليهم عُواره ، ولوجدوا فيه هم قبل سواهم اختلافاً كثيراً ، ولتبيّنوا فيه ببساطة اضطراباً فى اللّفظ وتناقضاً فى المعنى . إنّ هؤلاء المنافقين وسواهم حينما ينعمون النّظر فى نظم القرآن الكريم ، ويمعنون التّأمّل فى معانيه ، وحينما يدركون قدرة القرآن العجيبة الفائقة على إشباع كلّ نفس بجمال مبانيه، وإقناع كلّ عقل بجلال معانيه ، سوف ينتهون حتماً إلى أنّ القرآن الكريم كلام ربّ العالمين نزل به ملكٌ من الملائكة كريم على قلب بشرٍ من النّبيّين رحيم. وإنّ هؤلاء الّذين لا يتدبّرون القرآن الكريم والّذين يبيّتون فى جنح الظّلام قولاً لا يَرْضَى اللّه تعالى عنه ولا رسوله ﷺ يستعملون سلاح الشّائعات ضدّ الإسلام والمسلمين ويشنّون حربهم النّفسيّة المسمومة . وإلى ذلك أشارت الآية التّالية فإلى

الآية رقم (٨٣)

قال تعالى : وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾